# إلى القارئ

لا شك أن جميع التونسيين يدركون اليوم ان بلادهم تعيش ثورة كبرى جامحة شملت جميع الميادين الحيوية واخذت تاتي على مخلفات عصور الانحطاط العقائديـة والفكرية وعلى التدهـور الاجتماعي والتخلف الاقتصادي الذين اورثتهما ثلاثة ارباع قرن من الاستعمـار الفرنسي البغيض ؛ بذلك شهد جميع الملاحظين الاجانب الذين زاروا بلادنا ، الاصدقاء منهم وغير الاصدقاء •

ولاشك ايضا ان خطوات شاسعة قد قطعناها منذ ان تكلل كفاح الشعب بالاستقلال السياسي ، في طريق التحرر العقلي والتحرر الثقافي والاجتماعي والاقتصادي بفضل وعي المواطنين والمواطنات وبفضل عمل الجماهير الكادحة الدائب وتكتل القـوى الشعبية الحية المتجسمة في الحزب الحـر الدستورى التونسي وكافة المنظمات القومية ؛ ومن الاخلاص للحق والاعتراف بالجميل لذويه ان نسجل ان الرجل الذى خلق هذا الوعي وغذى ـ ولايزال ـ الحماس الشعبي وقاد ـ ولا يزال ـ الثورة الكبرى انما هو قائد الحزب وزعيم الحركة الوطنية منذاكثر من ربع قرن ورئيس الدولة المجاهد الحبيب بورقيبة وذلك باتصالاته المباشرة بالشعب وبخطبه الاسبوعية وبما ينفخه في اعضاده وفي رجال الدولة والحزب والمنظمات القومية من حماس وروح الثقة والاخلاص ، والجسارة والتعقل في آن واحد •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وان هذه الثورة الكبرى ـ لو تبينا خصائصها ـ لوجدناها جذرية عميقة لاتتناول القشور والمظاهر وانما تنفذ الى الصميم تعالجه وتتناول الواقع غير المرضى فتقلبه راسا على عقب ؛ انها تتجاوزالحوادث والظواهر بأنواعها الى آلة التفكير نفسها فتسعى الى اصلاح ما افسدته العصور الغابـرة والعقائـد الخاطئة منها ، والى النفس ذاتها فتطهرها مما علق بها من امراض وأدران ، والى سلم القيم الموروث فتعيد فيه النظر وتلائم بينه وبين مقتضيات العصر الذى نحياه والبيئة التي نعيش فيها • وكما ان المعرفة الحق تبدأ يوم يشعر المرء بأنه لايعرف شيئاً فكذلك الثورة الاصيلة تندلع وتكتسح الميدان يـوم يدرك اصحابها ان حياتهم لاترضى وان معتقداتهم وثقافتهم واسلوب حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وواقعهم الاقتصادى لاترضى ؛ لذا جاءت ثورتنا الكبرى تدعو وتعتمد في ان واحد على الصدق والقوة على الصدق والصراحة واتصف رجال الثورة بالاخلاص للشعب ومجاهرته بالحقـائق ولوكان بعضها مـرا ، واجتنبوا التملق والديماغوجية المورثة للنفاق والتدهور فالفوضى والانحطاط

ان عاجلا ام آجلا ٠ انهم يؤثرون الاصداع بالحق ولو اصطدم به بعض الذين طال سباتهم الفكرى فجمد عقلهم وتحجر وتصلب واصبح كالعود الميت جف منه النسغ فهو الى انكسار ٠

ومع ذلك فليست هذه الثورة الكبرى دامية ولا عنيفة ولامحمومة على نحو ما جرى او يجرى فى بعض البلدان الاخرى ٠ انها تعتمد على الاقناع والتشاور ومقابلة الحجة بالحجة وتعتمد على العقل الحى النابض فتعمل على تنميته وصقله واشعاع انواره على كافة افراد الشعب حتى يروضوا النفس على التغلب على العاطفة والاهواء والتعصب ٠ هى ثورة بشرية عميقة اصيلة صادقة سلمية تحترم الفرد وتؤمن بحريته وكرامته وتعمل على توفير الاسباب الحقيقية للحرية والكرامة ٠

وقد رأت مجلة « الفكر » وهى التى لاتزال تستمد قوتها ورسالتها من هذه الامة الماجدة وتعمل لخدمتها وازدهارها الثقافى والفكرى رأت ان تسجل بعض جوانب هذه الثورة وتحلل خصائصها وتشير الى اتجاهاتها مساهمة فى العمل الجبار الذى يقوم به جميع التونسيين للنهوض بالبلاد ٠

وقد رات اسرتها ان تضع هذه الثورة فى اطارها الحقيقى من الناحية العقائدية والتاريخية والثقافية فجاءت المقالات مذكرةموحية محللة من غير ادعاء العصمة ولا الجواب الفصل وكل ما نرجوه هو اولا ان نكون سجلنا جانبا من ثورتنا الكبرى وعرفنا ببعض خصائصها وجوانبها وثانيا ان نكون دعونا ادباءنا ورجال الفكر والثقافة فى ربوعنا وفى كامل العالم العربى الاسلامى الى التفكير الجدى الصادق فى شؤون دارنا العقلية وفى المعطيات الثقافية والاجتماعية التى لاحياة ادبية مزدهرة من دون ازدهارها ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولعله مما يشرف مجلة الفكر ان يكون خامس اعدادها الممتازة لهذه السنة يصدر فى غرة جوان والامة التونسية تحتفل بحريتها واستقلالها وتواصل زحفها التاريخى الحثيث الى حياة العزة والكرامة ٠

الفكر

# الثورة الكبرى والإسلام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# الثورة الكبرى

بقلم الشاذلي بويحيى



لاشك ان الاسلام احدث فى الامم العربية وغير العربية ثورة تعد من اروع ما عرفت البشرية من الانقلاب ·

ولئن كان للفرس والروم والهند من الاخلاق والنظم والرقى الفكرى ما يميزها عن العرب قبل البعثة المحمدية «فالجاهلية» كانت تعم العالم باسره فلا حكمة الهند تعصمهم من اشتمال معنى الجاهلية عليهم ولاحضارة فارس ولا علوم الروم اذ « الجاهلية » غير الجهل ومفهومها غير ما يقابله العلم والمعرفة بل لايقابله الا « الاسلام » فى معناه الاصح ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك ان « الجاهلية » معنى للحياة ولون للمجتمع البشرى يتصف به من كان لايدين الا بالقوة الغاشمة يخشاها عند ذويها ويسلطها على من استطاع تسليطها عليه والمثل الاعلى فى مجتمع هذا ديدنه يمثله بيت عمرو بن كلثوم احسن تمثيل اذ يقول ـ وكم ردد الاقوام قوله :

الا لايجهلن احد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وتصفح تواريخ الامم واسال الصحف عن اخبار البشرية فى طويل آبادها عساك تجد أمة سنت لنفسها شرائع فى الحياة يكون الرمز لها والمثل الاعلى نقيض صهيل عمرو بن كلثوم فانك عبثا تبحث لان الانانية والعصبية والقهر مافتىء البشر يخضعون اليها ويدينون بها وان سموها حمية او وطنية او حرمة وقد تدعو الديانات الى ما يصبو اليه العقل الحكيم لكن دعوتها وان زكيت فلم يكن للبشرية من نفعها نصيب يذكر · فماذا اغنى بنى آدم ان دعت المسيحية الى التسامح وخفض الجناح والرحمة مكان القصاص ؟

لكن اعتبر الاسلام وتبين كنهه وحقيقة لفظه ومفهوم رمزه وقارن بينه وبين « الجاهلية » تر انه ما اتى به الا لمحو تلك الجاهلية بابطال مغزاها وابداله بالمغزى الذى هو مغزى الاسلام الحق ·

فالإسلام معناه المسالمة والسلام لا الاستسلام كما قالوا ولايتم معناه الا بمقابلته بجهالة الجاهلية ٠ وان رابك من ذلك ريب فابتغ له القول الفصل فى هذه الآية :« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم **الجاهلون** قالوا **سلاما** »

هم اولاء الجاهلون امثال عمرو بن كلثوم وامامهم عباد الرحمان يقولون لهم سلاما ولا يقابلون الجهل منهم بالجهل ٠ فاعتبر ٠

وليس شأن الاسلام كاليهودية والمسيحية اذ هو لم يعن بالروح ومصيرها فى الآخرة فحسب بل كان همه الاول حياة الناس الدنيا ــ نقوله وان كره الكارهون : فلقد سن للناس شرائع دنياهم وجعل من قبائل العرب امة واحدث فى قاحل ارضهم دولة لها نظمها وشعارها ونظر فى امرهم وفى ما بين امرهم وامر غيرهم من الامم واعلن الاخاء بين البشر ولم يعلن من قبله ولا من بعده فى ما علمنا وتلك هى الثورة الكبرى ٠ فلقد جعل من تباين البشر سببا للتقارب والاخاء قائلا للناس :

«٠٠٠انا خلقناكم شعوبا وقبائل **لتعارفوا** » ٠ ولئن نزل الوحى فى امة العرب فان نبيهم حذرهم الغرور فقال :« ايها الناس ان الله قد اذهب عنكمُ نخوة الجاهلية وتفاخرها بالاباء ٠ ليس لعربى على عجمى فخر الا بالتقوى ٠ كلكم لآدم وآدم من تراب » ٠ وهكذا كون امة من عدم اركانها الايمان والتقوى لا العصبية والمصالح فجاءت فى العمران البشرى مثلا اعلى حق لخالقها ان يقول لها :« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ٠٠٠»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان المفكر الحر المتجرد من التحيز الى القوم والتعصب للدين يقف من تاريخ العرب والاسلام وقفة المتسائل هل ان هذه الامة كانت كما وصفتها الآية املا ٠ ويسأل التاريخ ويستنطق الواقع ثم يحكم ولا اخال مفكرا نزيها يقرر ان المسلمين ادوا الامانة فكانوا خير امة ٠٠٠ والتاريخ يشهد ٠

فنحن اذن بين امرين اثنين لا ثالث لهما ٠ اما ان نقر بان المسلمين لم يؤدوا الامانة واما ان نحتار فى امر هذه الآية والواقع يخالفها فلاهم خير أمة ولاهم يأمرون بالمعروف ولا هم ينهون عن المنكر اذا ما فهمنا الامر والنهى باشتمالهما على الائتمار والانتهاء بادىء ذى بدء ٠

ثم هذه الثورة الكبرى وقد كانت ورأينا انها كانت فماذا فعلوا بها ؟ وماذا آل اليه عندهم امرها ؟ لقد اختصموا فى سقيفة بنى ساعدة والنبى لم يدفن بعد وكانت خصومتهم رجعة العصبية القبلية الجاهلية اذ الانصار يمنية والمهاجرون عدنانية والعداوة بين عدنان وقحطان قديمة ظن الاسلام انه محاها بالدعوة الى الاخاء ٠ ولقد احدثوا بعيد ذلك الحدث الاعظم بقتلهم عثمان فكان فاتحة « الفتنة الكبرى » التى لم يمح أثرها الدامى فى الاسلام يوما ٠ وقد يعللون فعلتهم تلك بالذب عن عدالة الاسلام ومساواته ومقاومة محاباة القرابة

وهل علموا ـ سامحهم الله ـ ان صح مزعمهم ـ ان كان لعثمان راى فى تشييد دولة لاتقوم الا على « عصبية » فاختارها لها فاتخذ له ولدولته « عصبية » من بنى جلدته • فلعل عثمان اول خليفة فكر فى اقامة صرح دولة فى الاسلام وقد حقق ذلك بعده اهل عصبيته بنو امية • ثم كانت سلسلة من الاحداث هددت كيان الاسلام بله روحه فقد كاد ينساه القوم بل لعلهم نسوه : ذلك انك تترك حروبهم وجدالهم وتنازعهم وتفرقة كلمتهم وانخذالهم وتنظر الى ما هو صميم الدين الى اعتقادهم وتفهمهم الدين والاسلام واذا بك ترى بعدا عن الاسلام بعيدا • واذا ما قدرت هذا البعد بقيس معتقدهم ووهمهم وتهافتهم بما كنا بينا من روح الاسلام ومغزاه علمت ان الثورة لم تكن الثورة الكبرى • وعندئذ عليك ان تبحث عن السبب فى ذلك علك تهتدى الى الاستنارة فتعلم لمن الذنب هل هو ذنب الاسلام عجز عن هدف رامه ومثل ادعاه ام الذنب ذنب المسلمين • اما نحن فقد ادعينا عليهم عدم اداء الامانة فقلنا قولنا •

تلك هى قصة الاسلام والمسلمين والثورة الكبرى جاءهم بها فعطلوها •

فما سر اجرامهم وما سر الاخفاق وهل فى ذلك عبرة ؟

ان ميزة الاسلام النبوة • بل الاسلام هو النبوة • فالذى احدثه فى الناس من عارم الانقلاب الفكرى والاجتماعى لايمكن ان يكون فى الفترة القصيرة التى كانت فترته الا على طريق « نبوة » تأمر وتنهى وتعلم وترشد فيأتمر القوم وينتهون ويعلمون ويرشدون وذلك هو تقبل النبوة ولن يتم امرها ولن تكون الثورة الكبرى الا اذا كان منهم الامتثال المستميت • ولقد علموا ذلك علم من كان يؤمن بنقصه • علموا انهم لن يصلوا بقوتهم الضعيفة وبعقليتهم الصغيرة وبفكرهم الخطل الى ما فتح الوحى اعينهم عليه من شاسع الآفاق فى عالم الكون والانسان والاخلاق والمعانى • فرضوا بالامتثال فقالوا او امروا فقالوا : « سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير »

وبذلك كفتهم النبوة مؤونة كدح الفكر فى الزمن الطويل • فأنزل عليهم الوحى منا من السماء فتقبلوه شاكرين واقبلوا عليه يلتهمونه التهام اللقمة الباردة السائغة فاغفلوا منها ما لم يكن ثمرا لذيذ الاجتناء •

ذلك ان المسلمين لم يفهموا امر النبوة أو هم فهموا منها ما أرادوا أن يفهموا وما زينته لهم منها انفسهم فرأوا فيها المن والسلوى ورأوا فيها النعمة من رب غفور رحيم لكنهم ابوا ان يروا فيها المسؤولية وحمل العبء الثقيل بل والعمل المخلص • رأوها مطية لعيش رغد فى الدنيا ومثال سعيد فى الآخرة

فاستبشروا وتباشروا وتمتعوا فى العاجلة وتواعدوا بالفوز فى الآجلة وكانوا كما وصفهم شيخ المعرة متمثلا بقوله تعالى : « وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين » . حمدوه على غبطتهم . حمدوه على تيسير امر دنياهم وآخرتهم بأن نالوا ووعدوا فيهما « اللذة القصوى » .

فهل منهم من فهم من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر غير الامر والنهى فأتمر وانتهى قبل انيأمر وينهى ؟ وهل منهم منايقن ان « النفس المطمئنة » نفسه هى هى « النفس الامارة بالسوء » فحذرها دون انيطمئن الى اطمئنانها؟

ههنا فى الاسلام مبدآن هما كنه النبوة اذ عليهما يقوم الصرح صرح المجتمع فى اصلاح الانسان ما بنفسه واصلاح ما بغيره اعتمادا على صلاح نفسه فيكون لغيره المثال والقدوة . هذان مبدآن هما اسمى ما تتسم به شريعة فغيروهما وعبثوا بهما واستباحوا بعنوانهما مالايحصى من الاثم والجناية فكانت الفتن والحروب فى قساوتها وفضاعتها . وكانت الانانية والانهماك فى ارضاء الشهوات وجرهم ذلك الى انتهاك حرمة اسمى ماجاء به الاسلام من مبادىء وهو قوله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم » وعبثهم بكرامة الانسان كانسان امر غريب الشان عجيب .

بيد ان المسلمين اشد الناس حرصا مع ذلك على استقامة احوالهم وفزعا من انحطاط امتهم وغيرة على مبادىء دينهم السامية فلم تعرف امة ما عرفه المسلمون من وعاظ ومحتسبين ونعاة على الجبابرة والفاسقين ورثاة لتقلص ظل مملكتهم ودوس الاعداء حرمتهم والنيل من كرامتهم وما انفكت يوما تثور حميتهم فى غليان قد لايوافق احيانا ركود القوم وضعفهم .

ذلك لان تلك الثورة قد كانت فلم تمح من اذهانهم طيلة تاريخهم ولم يطمئنوا يوما الى انها قد خابت واخفقت فأملهم دوما حى وثقتهم فى الفوز فوزا نهائيا قوية راسخة وهو من اعاجيب الاسلام والمسلمين على مدى تاريخهم . فاذا اقبلت على هذا الامل وهذه الثقة بالتحليل – وهما مانجى الاسلام من الاندثار – رايت ان السر فى ذلك هو النبوة ايضا او شىء كالنبوة . نقول هو شىء كالنبوة لعلم المسلمين ان محمدا آخر الانبياء فلا نبى بعده . فمنياترى على يده يكونالاحياء والبعث والثورة اورجعة الثورة ؟ هنا قد يشارك المسلمون غيرهم من امم كثيرة فى انتظار المنقذ لهم مما هم فيه من سىء الحال . فلقد انتظر اليهود « مسيحا » وما زالوا ينتظرون . وهم ايضا قد هدهدتهم امنية طالما تحققت لديهم فارسلالى انقاذهم الانبياء تلو الانبياء اما المسلمونفقداغلقعليهم باب النبوة بعد ان تذوقوا لذيذ طعمها فما كان ليضورهم ذلك اذ سرعانمافشت فى اوهامهم فكرة المهدى المنتظر يأتى وقد امتلات الارض ظلما وجورا فيملاها عدلا وانصافا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان ما كان من جراء هذا الحلم وهذا الانتظار • فكلما قام قائم وادعى الاصلاح تبعه من المسلمين من تبعه فاحدثوا الفتنة والتفرقة • ويكبو القائم وينهزم ويفتضح امره فيظهر ادعاؤه جليا لكن ذلك لايمنعهم من استجابة داع يدعوهم بعده وآخر ثم آخر وما ذلك الا لانقيادهم الى من يرقبون منه صورة للنبوة وان كانت ضئيلة وقد يحجم عقلاؤهم عن هذا وينهونهم ويحذرونهم عاقبة الاغترار بدعوة الكاذبين المدعين لكن هؤلاء العقلاء انفسهم لم يشذوا عن القوم فى انتظارهم « نبوة » فى صورة مصلح يرسله الله على راس كل الف سنة لاصلاح ما يأمته اى لاعادة جنات النعيم عليهم لا « لتحريك السواكن » من بينهم واعتقد ذلك الامام الغزالى وغير الغزالى ولذا ترى المسلمين أسرع الناس الى تلبية دعوة الداعى الى الصلاح • ونجاح المصلحين فى الامة الاسلامية مدى تاريخها يدعو الى الاعتبار وان قصر اجل فوزهم غالبا فمات بموت القائم لاعراض القوم عن الامر اذا غاب صاحبه وقد تنبأ لهم القرآن بذلك عندما حذرهم قائلا :« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات اوقتل انقلبتم على اعقابكم •••» ولعل سر هذا النجاح وسهولة انقياد المسلمين الى كل مصلح داع الى الرشاد ظاهرة من ظواهر امر وخم مؤسف بينما قد يظنه الغافل ظاهرة محمودة من ظواهر الصلاح : فلقد تكون ظاهرة صلاح لو كانوا فى تلبيتهم دعوة الداعى عازمين على العمل معه مثله لا على التوكل عليه والاقتصار على مؤازرته وان ابلوا فى تلك المؤازرة البلاء الحسن • فموقفهم من المهدى أو مدعى الامامة وموقفهم من المصلح الموعود به او المصلح القائم بين اظهرهم هو هو موقفهم من النبوة • موقف سلبى يرجو من « النبى » او القائم مقامه ان يعمل دون ان يروا وجوب « العمل » على كل فرد منهم عملا مخلصا لايرجو صاحبه من ورائه جزاء ولاشكورا بل هو ليس العمل تلبية وامتثالا انما هو العمل اندفاعا ويقينا فى اخلاص لايكون الا اذا كان بينك وبين نفسك • وهذا هو العمل الذى جاء فيه قوله تعالى :« وقل اعملوا فسيرى **الله** عملكم ورسوله والمؤمنون » وهذا العمل ليس مجرد الانتصار الى نبى او امام او مصلح أو زعيم انما هو العمل اليومى الفردى والجماعى الذى يجعل من الثورة الثورة الكبرى •

فأنت ترى انه قد كانت الثورة وكانت حقا الثورة الكبرى اوقل انها كادت تكون الثورة الكبرى : فقد القيت اليهم النبوة فلم يحسنوا فهمها ولم يؤدوا الامانة فان كانوا مسلمين فهل هم مؤمنون ؟

والتاريخ يعيد نفسه احيانا لان البشر بشر على مر الدهور وقد يتاح للناس بين الحقبة والاخرى ثورة فيها فوزهم اذا ماعرفوا تقبلها فجعلوا منها الثورة الكبرى اى الثورة الحق •

واعتبره حولك وما الحق منك ببعيد •

**الشاذلي بويحيى**
استاذ اللغة والآداب العربية بالجامعة التونسية

# لماذا أنا مسلم وكيف أنا مسلم

بقلم عامر غديرة

**1) الاسلام دين ابائي**

**« ربنا اننا سمعنا مناديا**
**ينادي للايمان :**
**ان آمنوا بربكم فئامنا »**



ينشأ المرء فيجد نفسه معرفا فى نظر التاريخ والجغرافيا والاحكام شاء ذلك ام ابى · فهو يولد ببلاد معينة ويمنح جنسية بعينهاويخضع لقوانين خاصة · ثم ينظر المرء الى نفسه فاذا هو من هذا الجنس من البشر او من ذاك ابيض الوجه او اصفره رقيق الشفتين او غليظهما ازرق العينين اواسودهما لا يستطيع فى ذلك شيئاً · ثم يعيد النظر فاذا هو يؤنس من حوله آدابا خاصة وتراثا خاصا ودينا لقنه ابواه اياه فهو تابعهما فى كل ماهما فيه·

ويترعرع المرء على تلك الحال وقد تنتابه الحيرة ويستهويه حب التبديل والتغيير غير انه سرعان ما يرى ان الجلاء عن الوطن وفسخ الجنسية وتبديل الدين ليس من شيء وانه لايكاد يجد لذلك عظيم معنى · نعم ان امرءا يبتغى بعد اعمال الراى وطول التفكير ان يخرج من « لادين » الى دين او بالعكس من ملة وجد أهله عليها الى الحاد يختاره ، ان امرءا كهذا لجدير أن يفهم وان فعله لحقيق بالدرس والعناية · اما تبديل دين سماوى بدين سماوى آخر علـى ان دينا اصح من دين فهذا لامعنى له ولا سبيل الى الخوض فيه ·

تجيء الحيرة ويكثر السؤال وقد يطول التردد ولكن المرء يرجـع فى الاقرب الى دين الاباء يفحص عنه ويقلبه وينظر فيه ويحاول العمـل فى حـدوده · يرجع المرء الى دين الاباء يرجعه العقل والخوف من البقاء على غير دين ثم ان الاحكام قد ترجعه وذلك انك ، صغيرا او كبيرا ، يحشرك واياى المؤرخـون

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والجغرافيون واهل السياسة والقانون في عداد المسلمين او النصارى وأنا لا اعلم وانت لا تعلم كيف سنكون اذا حضر احدنا الموت وكيف سنكون بين يدي ربنا ٠ ثم انك تعلم والفقهاء منا لاحظوا ذلك في القرآن ان الايمان يزيد وينقص ويضمحل ويتجدد وقد يقذف الله نوره في القلوب وقد يجعل على اعين الناظرين اليه غشاوة ٠

والناس في الحقيقة هم الذين يمجسوننا ويهودوننا وينصروننا ويعتبروننا مسلمين فالناس على اختلاف اجناسهم وتباين اديناهم يجدونك على دين ما وفي حكم ما فيلصقون بك صفة دينك الصاقا يفسرون بها افعالك واقوالك ويركزون عليها اخلاقك وعقليتك فهم يوضحون مثلا افعالك الشخصية بتراثك السامي او بعقيدتك الاسلامية وان لم يكن ثمة ادنى سبب ولا صلة ٠ فهم الذين يدفعونك الى الطريق التي ابصرتها قدامك اذ نزلت هذا العالم وهم الذين يجعلونك في اطارك وان لم ترضه وهم الذين يسمونك بسمة تبقى رهينا لها كما يرتهنون هم ايضا من حيث يشعرون ومن حيث لايشعرون ٠

فاذا كان الامر كذلك وجب ان يبقى المرء في بيئته وان يتسم بسمته وان يتحمل مسؤوليته وان يعالج هذا الذي وجد آباءه عليه معالجة الصانع للمادة الخام ٠

## 2) ما هذا الذي وجدت عليه آبائي ؟

« قل : انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين»

جئت الى هذا العالم فوجدتني مسلما حينئذ ويريدني الناس مسلما ٠ اني لم اختر ان اولد مسلما كما لم اختر ان اولد تونسيا او اسمر اللون ولكني اعتز بلوني وبجنسيتي وأعتز أيضا بديني ٠ لست قائلا في مسألة الدين « هذا ما جناه ابي علي » واني قائل : هذا ديني فلأنظر فيه وهذه بضاعتنا فلنتمعن فيها قبل كل شيء

ان للاسلام نظرة للحياة وفلسفة وعقلية كونت شخصيتي وكيفت عواطفي ورققت شعوري فاني احن اليها وأتاثر بها واني لا استطيع في عجالة كهذه ان استخلص — الا في نقص واضطراب — اهمية الاسلام وان ابرز جميع ما يضمنه للانسان وللبشرية جمعاء — وانما سأحاول ان اذكر بعض الحقائق حسب اهتمامي بها وطرقها ذاكرتي ٠

انما الاسلام دين الانسان جعل الانسان غايته العليا واهتم به في دنياه كما اهتم به في آخرته واهتم به كرجل يموت واهتم به كروح تبقى مخلدة ٠ فهو دين يضمن للبشرية حياة بشرية لاحياة ملائكة ابرار ولا شياطين مردة وهو ياتي الانسان بجميع ما يحتاج اليه الانسان لاصلاح حياته في الدنيا وانقاذ روحه في الاخرة وهو يعينه على اكتساب حياته والقيام بمسؤولياته وازدهار شخصيته وتغذية ثقافته وتقوية معنوياته ٠

وانك لترى المسلم يستقر بين هذه الاعراض الفانية استقرار الرجل الحي

الدائم الخالد فيها فهو يعمل ويشتغل وينشط ويجتهد كان الدنيا باقية ثم هو لاينسى لحظة واحدة انها فانية زائلة فهو واجد من جهة وازعا مشجعا يعينه على الانشراح والازدهار والاكتساب والتنعم وقبول كل ماعساه ان ياتيه من الخارج فيهضمه ويشتغل به ويستخرج منه صالحا عاما وهو واجد من جهة اخرى مانعا رادعا يوقفه عند حده ويظهر له فناء الدنيا وآفاتها وشرورها وكذبها وبطلانها • فينشأ هكذا التعادل فى نفس البشر وتكون الاستقامة ويتم الانسجام وتكمل الشخصية وتستقل •

ولقد اوجد الاسلام للمسلم ثقافة هى غذاء لشخصيته ونعيم وهى ثقافة انسانية محورها الانسان وصالحه وغايتها الانسان وسعادته وليس الصالح صالح الآخرة وليست السعادة سعادة الاخرة فقط بل هما من اشغال الدنيا قبل كل شيء • وليست هذه الثقافة اسلامية ضيقة متعصبة ولا عربية خالصة بل هى مزيج مبتكر طريف خرج بالعرب من جزيرتهم القاحلة الضيقة وفتح لهم آفاقا واسعة ثرية ما كانوا ليطلعوا عليها لولا هذا الدين القيم ولم يكن دينهم اذ يخرجهم من ديارهم غازين فاتحين ليقلعهم قلعا ولينتزعهم انتزاعا (فما كانت هجرة نبينا الى المدينة الا هجرة داخلية حجازية) بل كان ينشرهم فى العالم حاملين القرآن مرتبطين بتراثهم ناقلين معارفهم معتزين بايامهم ثم اعانهم هذا الدين على الاطلاع على ما وجدوه فى الخارج وعلى هضمه واستعماله •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد احدثت هذه الثقافة واحدث هذا الاختلاط اشياء جديدة عجيبة يريد الفرنج النيل منها او ازدراءها فلقد عابها بعضهم بالنقص والانحراف وعابها بغلوها فى بعض المواطن وبتقصيرها فى بعض • وانه ليس منهاجنا هنا التعمق فى الجزئيات بل التلميح والوقوف على الحقائق العامة فنكتفى بالقول فى هذا الصدد ان لكل ثقافة عيوبا ومحاسن وذلك اننا لانرى النقص تقصيرا والخلاف مغايرة بل الخلاف والنقص عندنا ابتكار وتجديد وغنى وتقوية للفنون والعلوم فلا تقولوا : ينقصكم فى حضارتكم العربية الاسلامية الرسم ونحت التماثيل والتفنن فى المأساة او الموسيقى وقولوا : انكم معشر المسلمين قد جددتم اذ أغفلتم بعض ما اتينا به واتيتم ببعض ما اغفلنا • فان المسلمين قد اغفلوا نقش الصور ورسم الاجسام وعمدوا مثلا الى تخطيط الحروف العربية وتزويقها والى تخطيط الاشكال الهندسية وتبسيط الزهور والرياحين فاحدثوا انسجاما بديعا واحدثوا فنا طريفا عرف بهم واخذ عنهم • انك لترى اللوحة متشابكة فيها الحروف والاشكال والازهار مندمجة فيها الالوان وتظن انك ترى شيئا بسيطا سهلا موحدا وتمعن النظر فاذا من تلك الوحدة جزئيات مفردة تتولد وتتعانق وتتماس وتكون الحركة القوية وتكون المعانى الخصبة والاحساسات المتجددة • فليقل ناقدنا حينئذ لكم فنكم ولنا فننا وكلاهما ياتى الحضارة البشرية جمعاء بشيء جديد ويزودها بمنتوج ينمى ثروتها • ولنقل له : ان لم نفعل كما فعلنا ولم ننحرف كما

انحرفنا كان ينقص البشرية شيء هام فيه الغنى .ولا غنى عنه ــ وتنشأ عن هذا الفن عقلية جديدة خصبة خاصيتها الوداعة في الخطوط والانسجام في الالوان والهدوء التام مما يخالف الحيرة والاضطراب والالتواء والتفكك والتفجر والتفجع وكل ما قد نظفر به في لوحات الفنون الغربية وتماثيلها • ولعل سامع الموسيقى الشرقية ولعل قارىء القصيدة العربية ولعل الناظر في الرسوم التخطيطية الاسلامية يرى في كل ما يراه ويسمعه ويقراه وحدة وتكرارا وفقرا مملا والحق ان في تلك الوحدة تعددا وفي ذلك التكرار ابتكارا وفي ذلك الفقر غنى وتنوعا •

ولعل احسن شيء لابراز هذه العقلية هو مقابلتها بالعقلية الغربية النصرانية• فالعقلية النصرانية تبدو فيما ورثته عن العالم اليوناني والروماني تشكيلية تصويرية ميالة الى التجسيم والتكييف والتمثيل والتشبيه نلاحظ ذلك في عقيدة الثالوث وفي رسوم الكنائس واثاثها ونقوشها ومتاعها وفي تنظيم الصلاة والعبادة •

والعقلية الاسلامية الشرقية عقلية ميالة الى التجديد والتعطيل تواقة الى الروحانيات والالهامات لاتحن قط او لاتكاد تحن الى الكيف والكم ولا تستعمل قط او لا تكاد تستعمل المادة الجامدة • الم تر أن المسيحي اذ اراد ان يتقرب الى ربه عمد الى الحجارة والخشب والالوان فاخرج منها تماثيل كانها حية ترزق ولوحات تغشوها العاطفة ويجرى في لحمتها دم الحياة اما المسلم فانه اذا اراد ذلك عمد الى الكلم الطيب اول مايعمد فيصنع من موسيقى الالفاظ ومن الحركات والسكون ومن الفخم والرقيق هياكل مشيدة وقلائد منظمة واشعارا يقصدها تقصيدا • انما قصائدنا وادعيتنا وادبنا عامة بالاضافة الى حضارتنا هي بمنزلة نقوش الكنائس ونحت التماثيل ورسم اللوحات بالاضافة الى حضارتهم •

وانك لتجد في الحقيقة حضارات عديدة مختلفة كحضارة الحجر وحضارة الفولاذ وحضارة الذرة فلم لاتجد حضارة الكلم والفصاحة ؟

والدين الاسلامي من جهة اخرى هو اول خطوة نحو الثقافة الدولية والسياسة العالمية وهو اول خطوة لمحاولة التوفيق بين الامم والشعوب والنظام بين الاجناس والقبائل بالتسوية والقوانين التقدمية • فاينما توجه الرجل في كامل الامبراطورية الاسلامية كان يجد نفسه في وطنه الذي نظمه له الاسلام وسطر قوانينه وفي هذا المجتمع المنظم كان يتعايش المسلمون واهل الذمة يسود الجميع تسامح عظيم سجله التاريخ واعترف به فان التاريخ الذي ذكر لنا امثلة كثيرة في وجود الماجوس واليهود والنصارى احرارا يرزقون داخل الامبراطورية الاسلامية لم يذكر لنا مثالا واحدا لجالية اسلامية عاشت حرة محترمة في ارض نصرانية • لقد كان امير الاندلس في القرون الوسطى هو الذي يسمى مطران طليطلة واسقف قرطبة في تلك البلاد

الاسلامية التى كانت تجاهد النصرانية طول حياتها فى الثغور وتقبل النصارى فى الداخل

ذلك هوالاسلام كنز ثمين يعينك على اصلاح معيشتك فى الدنيا ويضمن لك انقاذ روحك فى الآخرة فلماذا تتركه وقد وجدته بين يديك ؟ ولكن هل انت مالكه ام هو مالكك ؟ هل يجب ان تصبح عبدا لدينك وانت تعلم انه وضع لصالحك وللصالح العام وانت تعلم ان الله فى غنى عن عبادتك وعبادة البشرية جمعاء ؟ بل ينبغى ان يكون تعاون بينك وبين الدين : ان تكون فى خدمته وان يكون فى خدمتك ان تدافع عنه وان يضمن لك حياتك فكيف العمل وكيف تحقيق هذا التعاون ؟ يجب قبل الاجابة عن هذا السؤال ان نعرف كيفية استعمال هذا الكنز الموروث حتى لايكون فى استعماله ما نكره وما يكره وحتى لاينجر عن هذا الاستعمال هلاكه وهلاكنا ٠

## 3) تاريخ التطور الاسلامى :

**« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»**

جاء الاسلام خاتمة لاديان سماوية اخرى مصدقا لما سبقه منقحا متمما فاول مبدا يقره الاسلام حينئذ هو مذهب التوارث والتعاون على ممر الاجيال وهكذا تتطور الاديان من واقع الى واقع آخر ومن عقلية الى عقلية اخرى ـ انما الاله فى الحقيقة اله واحد والبشرية بشرية واحدة وما تلك الا مراحل معقولة مفهومة يجتازها الانسان متقربا من الغاية القصوى وهى سعادة البشرية جمعاء ٠ انه من البديهى الا تكون الاوامر الموجهة الى قوم نوح نفس الاوامر التى تصلح لقوم موسى او لقوم عيسى او لامة محمد ٠ والمعجزات توضح ذلك التطور فان معجزة موسى امام فرعون جاءت فى وسط بدائى فى اوائل البشرية فكانت من قبيل السحر والسحر اهم علم فى ذلك العهد ٠ اما معجزة عيسى فقد جاءت فى وسط ارتقت فيه الانسانية من عقلية الهواجس وخوارق العادات الى عقلية العاطفة الصادقة والحب الصحيح فكان ابراء المرضى وحب الناس والتضحية الكاملة ٠ ثم جاءت معجزة محمد فى وسط يحب الحجة والفصاحة والابداع والخلق الفنى فكان اعجاز القرآن ٠

فالنبى (صلعم) يصدع بهذا المبدا التاريخى ويربط نفسه بالانبياء الذين سبقوه ويصل دينه بملة ابراهيم فهو يؤكد من جهة ارتباطه بالقديم وتسلسل الديانات السماوية ومن جهة اخرى ياتى بالجديد ويضع الاسلام موضعه من التاريخ اعنى موضع دين ثورى تقدمى تجديدى بالاضافة الى كل ماسبقه ٠ الم يقل (صلعم) فى هذا المعنى اهم حديث نراه يظهر روح الاسلام الثورية التجديدية وهو :

**« والله لو ان موسى وعيسى حيان لما حل لهما الا ان يتبعانى ! »**

وجاء الاسلام فابتدأ التاريخ

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحاول اول ما حاول الموافقة بين القوتين الكبيرتين القائمتين فى عهده تقتسمان الحياة الروحية والسياسية وهما اليهودية والنصرانية ويرى النبى (صلعم) انه حقيق ان يقوم بهذا العمل الشريف لانه واليهود وعيسى من طينة واحدة ومن جنس واحد (ساميون) ومن روح واحدة (ابراهيم الخليل) وتظهر تلك المحاولة فى مواطن عدة سوف اقف فى هذه العجالة عند موطن واحد منها ، انى ارى تلك المحاولة فى القبلة اذ جعلها الله فى بداية الامر تجاه القدس الذى فيه المسجد الاقصى ومحراب زكرياء وجامع اليهود وطريق الصليب والذى كان اليه الاسراء فكانت حقا قبلة جامعة موحدة بين اليهود والنصارى والمسلمين ثم صارت القبلة الى الناحية الاخرى التى بدا عندها الاسراء وكانى بالقدس تبقى قبلة عاطفية وكانى بهذا التغيير يثقل على المسلمين • فينزل تعالى :« **وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله** »

ويظهر التقارب بين الاديان السماوية الثلاثة او بين اثنين منها فى مسائل اخرى مثل اهل الكهف : اولئك النصارى الذين يذكرهم القرآن والذين مازالوا الى الآن تحى ذكراهم عند المسلمين (يوم الجمعة) وفى بعض الاوساط المسيحية (شهر اوت من كل سنة) • ثم ان امرا آخر جديدا حدث منذ رؤية السيدة العذراء سنة 1917 فى بعض قرى النصارى تدعى فاطمة ولم تخف غرابة هذا الاتفاق بين ام المسيح عليه السلام وبنت رسولنا (صلعم) حتى ان الكنيسة خولت للنصارى ان يسموا بناتهم من ذلك الحين فاطمة •

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ثم ان النبى الامى كان خاتمة الانبياء ومعنى ذلك ان مثاله حى لايموت لانه غرس فى نفوس صحابته وخلفائه وتابعيهم الى يوم القيامة مثلا اعلى تطمح اليه الاجيال ويتجدد على ممر العصور نعم ان الانبياء لايورثون ماديا ولكنهم يورثون روحيا وعقليا فروحهم خالدة وعبقريتهم متوارثة ورسالة خاتم الانبياء متجددة بعد موته •

ونشأت بعد موت النبى (صلعم) المذاهب وتعددت الفرق وتخالفت الامة •

انقسم المسلمون طوائف عدة تكفر كل طائفة الاخرى وتعتقد فى نفسها الكمال والصلاح وظهرت الشيعة والخوارج والسنة وظهرت الرافضة والجهمية والمرجئة والمعتزلة والزيدية والامامية والاباضية والكيسانية والصفرية والازارقة والقدرية والاشعرية والكرامية والباطنية والسلفية الى غير ذلك من الفرق والنحل • ولقد اضاعوا جميعا وقتا ثمينا فى المجادلة والتهم وخلق العبارات التى تخرج المسلم من دينه ومن داره وحتى من الحياة • وظهرت احاديث كالذى قاله ابن المبارك اذ قال : « من تعاطى الكلام تزندق » فاستعملت هذه الكلمة بكثرة لابعاد الناس والاستراحة من بعض الشخصيات

بتهمة التئامر على حياة الدين وأمن الدولة فكلما اجتهد امرؤ فى تفسير القرآن والسنة والدين بصفة قد تكون موافقة للاسلام ولكن مضرة بالدولة وبالامن العام عد صاحب هذا الاجتهاد زنديقا وربما قتل فنلاحظ ان لهذه التهمة وجهين على الاقل : يتزندق المرء ضد الدين فقط ، وقد يستعمل الدين للتزندق ضد الدولة ٠ والتهمة الثانية اقوى واخطر **اذ الدين بالدولة واهم أركان الجهاد للذود عنها** فالزنديق كل من كان فى وجوده وفى افكاره خطر على الدولة ، حينئذ على الاسلام ٠

ويظهر تعدد الفرق ويتجلى ميلهم الى المجادلة فى عظم ما وصل الينا وما لم يصل من مجموعات الفتاوى والمسائل وكتب الملل والنحل ويحسن بنا ان نلاحظ هنا ان كل هذه الكتب تهتم فيما تعالجه بالواقع وتتناول بالبحث مشاكل الساعة وهى تتكيف وتتغير حسب الظروف وهى على تخالفها وتطاحنها وتضاددها وتصادمها ترجع كلها الى السنة وتعتمد كتاب الله ٠

ولعل هذه الاختلافات وهذه الفروق تصل الى أوجها فى القرن الرابع للهجرة فانا نرى فى تونس مثلا فى اواخر الاغالبة خلافا قائما فى القيروان بين اصحاب مالك واصحاب ابى حنيفة وكأن حياة هؤلاء الفقهاء فى هذه الرقعة من الارض وفى ذلك العهد من الزمن لم تكن الا سبا وشتما وامتناعا من الصلاة وراء فلان وامتناعا من الرد على تحية فلتان هذه صبيانات قد تؤدى الى الحرب ان لم تؤد الى القعود والكسل ٠

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم تنتصر الشيعة وينتصر على الشيعة الخوارج فى عهد ابى زيد صاحب الحمار ثم تعود الشيعة ثم يرتحلون الى مصر بدون نية رجوع فتعود السنة وتستقر وفى كل ذلك اهل القيروان يستقبلون الغالب ويتبرؤون من المغلوب ولكن رجوع السنة فى هذه الديار واستقرارها يحدث حركة رد فعل شديدة قامت ضد كل تجديد وضد كل محاولة انحراف عن المذهب المالكى مما نعانيه ونعانيه الى حد الآن ٠

ويتطاحن الحنفية والمالكية بالقيروان ويتطاحن فى العراق اهل الشيعة واهل السنة ثم اصحاب الامام احمد والقائلون بالاعتزال ويتهم الخليفة ببغداد مذهب احمد بن حنبل ثم هو يرجع هذا المذهب ثم يرفضه من الجامعة الاسلامية ثم يتصادم هذا المذهب فى القرن الخامس بالخصوص مع المذهب الشافعى وفى كل ذلك تظهر الدولة لامور سياسة مع هؤلاء تارة ومع هؤلاء اخرى ٠

ويختلف المختلفون ويتشاجر المتشاجرون وقد يتقاتلون ٠ والحق اننا قد نجد فى الواقع بعض الفقهاء ينتمون فى الاصول مثلا الى مذهب ابن حنبل وفى

الفروع الى مذهب الشافعى فانك تجد مثلا ابا بكر الآجرى (المتوفى بمكة سنة 960) قد ينسبه بعض العلماء الى احمد بن حنبل ويعده بعضهم فى طبقات الشافعية وانك تجد ابا القاسم الطبرانى ، صاحب المعاجم (المتوفى باصبهان سنة 360) قد يعسر حتى على علمائنا الآن ان يجعلوه فى اطار بعينه وان يقيدوه بمذهب بعينه ٠

والى جانب هذا الواقع المحسوس نرى الناس يتشددون فى مذاهبهم ويتمسكون بها ويظن كل واحد منهم انه على صواب ويود كل واحد منهم ان يجعل لصاحبه علامة كسمة الانعام يرضاها ويرتاح لها فكان القوم فى القديم اذا ناديت امامهم بوجوب الرجوع الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله (صلعم) عدوك خارجيا واذا اكثرت لهم رواية الحديث فى التوحيد وذات الخالق وصفاته نسبوك الى المشبهة واذا شككت فى رؤية الله فى الجنة حشروك فى زمرة المعطلين ، وانا نجد فى بعض عقائد اهل السنة الموثوق بهم كابن بطة العكبرى ، ما يلى : « من قال « القرآن مخلوق » او قال : «كلام الله » ووقف او شك او قال بلسانه واضمره فى قلبه **فهو بالله كافر حلال الدم** » برىء من الله والله برىء منه » فهذا من الغلو الظاهر والمبالغة التى لاسبيل الى قبولها ويزيد ابن بطة فيقول : « **ومن شك فى كفر هذا الرجل فهو ايضا كافر** » فانا على هذا القياس سنكفر اكثر من 300 مليون مسلم الآن يشكون فى تكفير القائل بخلق القرآن أولا يكترثون به ونكفر الخليفة المامون وغالب المسلمين فى عصره ــ انه ما كان ينبغى لنا ان نتلاعب بتكفير بعضنا بعضا حسب الظروف وحسب أوامر الساعة : خلق القرآن او قدمه تفضيل الشيخين او لعنهما ٠ وانه ما كان ينبغى لنا وما كان ينبغى لاحد ان يخرج احدا من ربقة الاسلام اذ الحساب بين يدى الله ٠

وانى لن انسى ابدا الدهشة التى اعترتنى حين قرأت فى بعض الكتب ان عالما كبيرا مثل الطبرى على ما اسداه من قيم العمل فى سبيل التاريخ وفى سبيل تفسير القرآن يدفن ليلا فى منزله خوفا من تشويش الحنابلة ٠

انى ارى حينئذ ان الاسلام دين تاريخى مبدؤه التطور ومحركه ومنعشه ٠ وهو دين الواقع يفهمه ويعنى به ويقرأ له حسابه وهو واضح المبادىء سهل الفهم يسير التطبيق لكن كثرة المذاهب جعلته عسيرا وخوف الانحراف جعله صلبا متشددا ٠ فيه حرية فردية لكنها قد تؤدى الى الفوضى والهلاك وقد تؤدى الى التجديد والاجتهاد ٠

http://Archivebeta.Sakhrit.com

### 4) هــل من عقيـــدة عصرية ؟

« ولتكن منكم امة يدعــون الى الخير
« ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر
« واولئك هم المفلحون »

ذلك الاسلام ديننا ودين آبائنا وجدناه فدرسناه ودرسنا تاريخه فوجب حينئذ على ضوء هذه الدراسة الرجوع الى الواقع ومحاولة تطبيق مبدأ التطور فيه والسير نحو تاليف عقيدة جديــدة صحيحة مثلما الف ائمتنا وعلماؤنا من قبــل .

هذا المسلم التونسي خاصة والمسلم عامة بين يديك فانظر اليه وانتبه الى حياته وتفكر في افعاله واقواله . انك تستطيع ان تمر بمدينة اسلامية وقت الصلاة فلا ترى الناس ينتفضون اليها مسرعين تاركين نشاطهم ولاترى سير الحــركة بالمدينــة يتبدل او يتعطل وانك ترى القــوم يشربون الخمر ويتاجرون فيها وانت تعلم انهم ادخلوا في عــاداتهم اشياء كثيرة تختلف مظاهرها باختلاف الطبقــة والتربية فهناك سرقــة من درجة عليا وهنا لك سرقة سفلى وهنالك زنا وهنالك لواط وهنالك غش وهنالك ما شاء الله من المحرمات تؤتى وماشاء الله من الفرائض تترك . وكأن القوم اقتسموا النقص والزيادة حتى يكون تعادل وشبه مساواة وشبه تضامن بينهم وحتى لايلوم احدهم الآخر فالذى تراه يواضب على الصوم تراه يعمد الى الزنا مثلا في غير احتشام والذى تراه يبتعد عن الخمر مثلا يترك الصلاة ايضا ويتناساها .

فالمعصية عند حكــم الفقهاء قائمة لاشك فيها وهي كأنهــا مقبولة ان صح التعبير بتقبلها جميع المسلمين بتضامنهم الصامت وتسترهم المــرتكز فيما يــزعمون على الآداب واللياقــة وحسن السيرة وهــم في تسترهم هذا انما يستقرون في بحبوحة المخادعة ولين النفاق . فما اطيب الرجــل عندهم اذا غض الطرف وما اعمق ايمانه . واني اتساءل لماذا لاينقلب ذلك النفاق وعيا يجر التسامح ولماذا لايصبح ذلك التستر حرية ولماذا لا نحاول مجابهة الواقع وجهــا لوجه ؟

ثم ان قسما آخر من المسلمين يقترفون من الذنوب اطرفها ويتفننون في المعصية تفننا بعيدا يندهشون لبعض افعال اخوانهم ويتمسكون ببعض الدين في حين انهم يدوسون سائره .

ثم انه قد يكون اسلام للخاصة واسلام للعامة يقول الخاصة فيه للعامــة « افعلوا حسب ما نقول لكم ولا تفعلوا مثلنا » وتنشأ عقلية للخاصة ظاهرها الطاعة وباطنها ذنوب « بورجوازية » من صنف رفيــع وتنشأ عقلية للعامــة ظاهرها العصيان وباطنها الجهل والخوف والجوع والفقر والاضطهاد وقد تخلق الخاصة فرائض جديدة ومحرمات جديدة يستغل بها الفقهاء ورجــال الدين الكاذب ما وقع بين ايديهم من غوغاء ورعاع كما يزعمون .

ونحن لايسعنا الا ندعو الى النظر الى الواقع والى الصراحة فى الحكـم • فتعالوا ننظر الى معاملاتنا وتجارتنا واكلنا ولبسنا وعاداتنا واخلاقنا وتعالوا ننظر الى لابس الحرير والذهب والى التاجر فى الخمور والى المتعامل بالربا والى غير ذلك من مقومات الحياة الاجتماعية ومكونات الدولة ولنتساءل هل يمكن الرجوع بكل ذلك الى الوراء وهل يمكن تعطيل كل ذلك •

فلقد قبلت الناس المحرمات فى حياتهم وفى اهليهم ولقد قبلت النـاس البدع والتجديد فى مجتمعهم ومعاملتهم ثـم ان طائفة من هؤلاء الناس قـد هضمت كل ذلك او تكاد تقوم فتتألم لترك الصلاة او لترك الصلاة او لترك الصوم مثلا او تصرخ فى عنف او تنتقد فى حياء وخفر • فنحن ايضا نصرخ لمن يصرخ لنا ونقول لتلك الطائفة الجاهلة فى ترددها او المنافقة فى رفضهـا كلاما صريحا : ان الذى لم يذنب منها قط ولازنى فى حماية ولافى استقلال، فى دار اسلام ولافى اوروبـا فليرم الحجرة الاولى يرجم بهـا تارك الصلاة او فاطر رمضان•ام مابالكم نسيتم قوله تعالى :« انالله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » ؟••

ذلك الواقع وانه ما كانيحسن بامة عاقلة مثلنا انتركنالى الجهل والمخادعة والنفاق • انى اعرف بلادى واعرف جانبا من البلاد الاسلامية ومن تاريخها وانى اعرف كثيرا من المسلمين المتقين القانطين الورعين المثقفين واعلم موقفهم من الصلاة والصيام كما اعرف موقفهم من اللواط ومن الزنا •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انه لانستطيع ان نحمى عقلية من « يؤدى الفرض وينقب الارض » ومن « يخدع بالسبحة » وانـه لايكفينا مقاومة عقلية التشبث بالجهل او المنافقة لامر ما فحسب بل يجب علينا ان نقلعها قلـع الصمغة من الشجرة وقلـع النجم من الارض المحياة•ويجب علينا من بعد ذلك اسمى من هذه التى تنافق وتداهن واسمى من تلك التى تؤدى واجبهـا فى غير نظر الى الغايـة وغير تمييز بين اخف الضررين او بين ابلغ النفعين •

وينافق المنافق ويتالم المتالم ويتطير المتطير لا لان ما ناتيه من الفعل حرام فيه مضرة للبلاد او للامة الاسلامية للفرد او للجمع وانما مدعاة للكسل وحبا للجمود والركود بل اقول انهم يقفون هذا الموقف فى كثير من الاحيان لاخوفا عليك من الفشل والضرر وانما خوفا من نجاحك وتجديدك وثورتك

ثم اود لو يلتفت بعض رجال الصدق الى ظاهرة اخرى لاتخلو من الفائدة ذلك ان الذين يـذودون عن الاسلام فى اخلاص ينبغى لهـم ان يعلموا انـا ـ معشر الداعين الى الاصلاح ـ منهم ومعهم وان المخادعين حرب عليهم وعلينا فأولئك الذين يستعجلوناو يستبطئون فأولئك الذين يعيبونوينتقدون باسم الدين وطلبا للعدل انما هم بصنيعهمهذا يعملون على تأخير نجاح الدين وعلى ابعاد العدل وفشله • فالمخادعة غير الصراحة والتهديم غير التجديد والعجلة

غير السرعة والابطاء غير التأني وينبغي لنا ان نتفكر جميعا فى امرنا وان نقف على حقائق الاشياء ٠

هذا واقع وتلك عقلية وهذه اهـواء متشابكة متضاربـة لانرى فى اعـين اصحابها دائما اله ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ٠

وهذه بلاد متخلفة تبعث الى الحياة فهى تشعر بتخلفها الثقافى وبتخلفهـا الدينى وبتخلفها الاقتصادى وهى تبتغى الخروج من هذه الظلمات الى نـور الازدهار وهى تبتغى ــ لا بالجدل فيما لايجدى بل بالعمل المثمر الجدى ــ ان تصل بالثبات والجلد والنشاط والصدق والاخلاص الى اكتمال شخصيتهـا واسعـاد نفسها ٠

سوف يسخر المتطرفون من الناس ويظنون انك واجد دينـا جديدا يحل ما حـرم الله ويبطل الفرائض ٠ والحـق ان فكرة التجديد وتاليف العقائد وضبط المسائل كلها قديمة متصلة باصول الاسلام اتصالا كبيرا ٠

ان طائفتين من المسلمين تتخاصمان بهذه الديار وتظن كل واحدة منهـا انهـا على حـق وانها تمثل الاسلام الصحيح ٠ ولقـد تناقشت طوائف من المسلمين من قبل وتقاتلت بارضنا هـذه وبسائر البـلاد ٠ ولقد تناقشت وتقاتلت فى مسائل كلامية معينة لاتوجب مناقشتنـا الآن او قتالنـا لانها كانت اذ ذاك رموزا واضحة قائمة تدل على عقلية خاصة وتكيف حياة دينية خاصة ٠ فلقد تجادلوا وتخاصموا وامتحن بعضهم بعضـا فى خلق القرآن ورؤية الله فى الجنة واستوائه على العرش ونزوله وسمعه وبصره الى غير ذلك من المشاكل اما نحن فانا نرى من وراء ذلك امثلة ورموزا ينبغى لنا ان نحدد مشاكل ومسائل شبيهة بها تكون لحياتنا الاسلامية وذاتيتنا الاسلامية اساسا كالخروج من التخلف وهو الخروج من الظلمات الى النور الذى يحث عليـه الدين ٠

ولقد راينا ان المذاهب فى التاريخ لها حياة كحياة البشر فهى تتكون ثم تنمو وقد تقوى وتضعف ثم تموت وانهـا يشبعها الناس ويتركونهـا وان الناس انفسهم يشعرون فى بعض الاوقات بوجوب احداثها

فوجب حينئذ الايمان بالتاريخ والتطور ووجب الايمان بالتحويروالتجديد وذلك بالاضافة الى مشاكل الساعة وحاجاتها وبالرجوع الى الكتاب والسنـة والاجماع ٠ وانه لاينبغى لنا ان نبقى مقلدين لمذهب يبدولنا قديما قارا دائما وقد كان فى اول امره خارجية جديدة غير معترف بها ٠ فكل شىء قديم عندنا كان محدثا فى عصره وكل شىء محدث كان يحذره الناس ويخافونه ويزدرونه ويميلون عنــه ٠

بينما يموت الناس جوعا او تحت الاستعمار ليست القضية ان نتخاصم فى الخلافة هل هى فى قريش ام لا ولا فى التكبير على الجنائز أاربعا ام خمسا ولا فى رفع اليدين بعد القيام من الركوع ولا فى المسح على الخفين مع وجود الماء ولا فى المبالغة فى الاستنشاق ولا فى الجهر بالبسملة فى الصلاة بل القضية ان نبذل ما بانفسنا وان نحافظ على هذا الدين بالمحافظة على هذه الامة • فلا يهمنا الصلاة مع هلاك الدولة بل يهمنا الذود عن الدولة ولو اوجب ذلك ترك الصلاة •

ووجب النظر فى امرنا لاننا نعرف التاريخ ولاننا اطلعنا على الدين ولاننا نكشف القناع عن كل منافق عنيد •

ثم لاننا نعلم ايضا ان بعض كتب العقائد التى هى بايدينا والتى يحسن بكل مسلم ان يرجع اليها لا توافق عصرنا • يقولون دائما ان القرآن يوافق كل عصر وكل بلاد نعم ! ولكن كتب الفقه وكتب العقائد فلا • ولنضرب لذلك مثلا : ان السنة الاسلامية المدونة فى القديم تعد من البدع : اخذ الاجرة على الاذان وعلى الامامة وعلى تعليم القرآن وغسل الموتى فهل ممكن الآن أن نعد ذلك بدعة وان تؤتى هذه الاعمال كلها بدون اجرة ؟

بل هكذا يكثر الكلام ويكثر الجدال •

وتظهر كلمات حق ويراد بها باطل — وتظهر الدعاية الكاذبة ويكون الافتراء ويكون النفاق — ويفترى اهل الحاجة على الله كذبا ونحن نعرف الله كما يعرفونه •

نظرا للجهل والتفرقة والانحراف عن السنة الحقيقية وانه يجب لزوم الجماعة والطاعة وعدم الخضوع لاهل الزيغ والتفرقة والشناعة

وعملا بقوله تعالى « لاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب اليم » • وبقوله عز وجل « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص » ودفعا للاغلوطات والمشاكل الكاذبة وجب المناداة بالاصلاح والتجديد وحالة البلاد الاسلامية اذ تختلف فيها طائفتان قد شرحها (صلعم) اذ قال : مثل القائم على حدود الله والمداهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فى البحر فاصاب بعضهم اسفلها وبعضهم اعلاها وكان الذين فى اسفلها يخرجون ويستقون الماء ويصبون على الذين على اعلاها فيؤذونهم فقالوا : لاندعكم تمرون علينا فتؤذوننا فقال الذين اسفلها : اما اذا منعتمونا فننقب السفينة من اسفلها فنستقى • قال (صلعم) : فان اخذوا على ايديهم فمنعوهم نجوا جميعا او تركوهم هلكوا جميعا

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

ان الظروف والاحوال والحاجات لتفرض علينا هذا التجديد كما فرضته على الذين من قبلنا ، نحن نعلم انه قد وقعت في تاريخ الاسلام محاولات عديدة منها محاولة التوفيق على قاعدة التجديد بين الفقه والتصوف (محاولة ابن عقيل والغزالي) ومنها محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة (كمحاولة ابن طفيل وابن رشد) فلماذا لانحاول الآن ، ونحن احرار عقلاء ، التوفيق مثلا بين الفقه والاقتصاد السياسي او بين الفقه والنظام الديمقراطي ؟

يجب ان نجتهد لاجتياز الشكل والصورة والحروف والالفاظ والتقاليد والعادات الى الروح والمعنى والتجديد الى العمل الحق والايمان الصادق والحب المنشيء ونحن في اجتيازنا هذا نرجع دائما الى الكتاب والسنة والاجماع على هذه القاعدة : ان لم يكن برهان في الكتاب فبحث في السنة وان لم يكن وضوح في السنة فاجتهاد واجماع • وهذه القاعدة مرتكزة على عقلية الاسلام التي هي عقلية تطورية تقدمية والتي تعد القرآن والسنة والاجماع روحا ومنهاجا ورموزا وامثلة وقدوة وهدى لاعبودية وتقييدا وتقليدا اعمى •

نحن نؤمن بالاسلام ونؤمن بالتاريخ •

وهذا القرآن في الحقيقة لايحدده التاريخ وهو قائم خارج التاريخ أعلى من التاريخ فانا بعد نزول القرآن ننزل في التاريخ ونبدا في التطور ونحن نعتقد ان عمر مجدد في عصره وان ابا حنيفة مجدد في عصره ولكن اقوال عمر وابي حنيفة قديمة بينما تبقى جديدة طريقتهما وروحهما وقبولهما لتطور الاسلام بالاضافة الى الواقع والطوارىء • ورائد المسلمين عامة في ذلك هو التجديد في سبيل الصالح العام والتجديد بالاستحسان ••

نعم لقد حن المسلمون منذ زمن بعيد الى الرجوع الى عهد الرسول والخلفاء الراشدين واني لا ادري هل لاحظوا ان الخلفاء الراشدين اربعة قتل ثلاثة منهم في ممارستهم امور الرعية •••

ويمر الزمان ويشتد الشوق ويعظم الحنين ولكن لا رجوع الى الوراء بل تقدم ابدا فلا ينبغي لنا ان نبكي لهذه الحال ونحزن بل يجب علينا ان نعرف معنى الرجوع الى عهد الخلفاء الراشدين • فليس الرجوع الاقتداء بهم في الجزئيات وتقليدهم تقليدا اعمى وانما الرجوع مسايرة التاريخ والعمل على اسلوب رسول الله (صلعم) وطريقة المسؤولين الصالحين •

**« ان ماراه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن »**

اعلم يا اخى ــ هدانا الله واياك ــ ان الله فطرنا على هذا الدين فنظرنا فيه فاذا هو متين قيم ونظرنا فى تاريخه وتاريخ مذاهبه فوجدناه قابلا للتطور مسايرا للتقدم ثم انا نظرنا فى واقعنا فوجدنا دعوة الى التجديد ملحة فوجب علينا حينئذ الآن ان نستخلص على ضوء هذه الدراسة ما هو قار فى الاسلام من جهة وما هو متبدل من جهة اخرى بتبدل الظروف والاحوال ، فما هى اركان الاسلام القارة وما هى اصول الدين الدائمة وماهى الضرورات واحوال الطوارىء ؟ قد يكون هذا السؤال نواة لعقيدة جديدة توضح موقف الاسلام من الحياة العصرية ومن حالة البلاد الاسلامية المتخلفة .

وهذه العقيدة يستطيع صاحبها ان يقسمها الى قسمين : يكون القسم الاول خاصا مثلا بالالهيات والنبوات والروحانيات والسمعيات يعيننا على معرفة ذات الله وصفاته وتفهم رسالة الانبياء وصفاتهم وعصمتهم ومعجزاتهم وكتبهم واقوالهم على التفكير فى ما وراء شهادتنا ومادتنا من ملائكة وجن وروح وكذلك على التفكير فى حياة اخرى تبدأ بمشاهد القيامة وحالة القبر والبعث والموقف والحساب والجنة والنار .

ويكون القسم الثانى مثلا قسم الاخلاق والسياسة والعبادات والآداب والنظام وطاعة اولى الامر منا واحترام اركان الدين ومؤسسات الدولة .

ولعل احسن شىء نستطيع ان نرجع اليه الآن فى خصوص القسم الاول هو عقيدة حسن البنا وانى ارى انا نستطيع ان نركن اليها وان نعدها تقدمية عصرية ولكنها بالاسف غير كاملة فانا نستطيع ان نوافق الامام الشهيد حسن البنا فى اعتقاده المرتكز كما يقول على اعمال الراى والعقل ونتاسف لموته اذ حال بينه وبين اتمام هذه العقيدة .

ويقول الامام الشهيد فيما يقول :

« وانما ضربنا لك هذا المثل **لترقى بنفسك** عن مواطن التقليد فى التوحيد « **وتعمل الفكرة** فى تفهم عقيدتك وتستعين بطاعة مولاك فى معرفة « اصول دينك حتى تصل الى مراتب الرجال !» ثم يستانف فيقول :« ولهذا **شرف الله تعالى العقل بالخطاب** وجعله مناط التكليف وندبه الى البحث والنظر والتفكير » . ثم يزيد ويوضح نسبة كل شىء وضعف كل علم فيقول : « ومن هنا تعلم ان الاسلام لم يحجر على الافكار ولم يحبس العقول وان ارشدها الى التزام حدها وعرفها قلة علمها وندبها الى الاستزادة من معارفها. فقال تعالى :« **وما اوتيتم من العلم الاقليلا** » وقال تعالى « **وقل ربى زدنى علما** »

مما يدل على ان العلم كالايمان يزيد وينقص ولاشيء قار في هذا الوجود . ولاحظ الامام حسن البنا ايضا « ان بعض الناس ولعوا بالمعميات وادعاء الخصوصيات والزيادة في الماثورات » الى غير ذلك مما يدل على ان ارباب العلم واصحاب الفقه يعمون علينا في كثير من الاحيان ديننا ويقيدوننا تقييدا تصير العبادة معه لامعنى لها اذ هل العبادة في الحقيقة عبودية ام طاعة وحب وايمان ايجابي ؟

نحن لانختلف في اصول الدين ولكنا لانقدمها بغلو ومبالغة تشبه عصبية الجاهلية ومعتقدات الاوائل الوحشيين .

يجب حينئذ الايمان بالله عز وجل (بالقلب واللسان والعمل) والله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في افعاله وتصرفاته ويجب الايمان بالقرآن كلام الله ويجب معرفة صفاته تعالى جميعها كونه سميعا بصيرا حكيما عليما قديرا الخ. والايمان بالقضاء والقدر وبالبعث والقيامة والحساب والجزاء والجنة والنار والخلق والملائكة والرسل وتسلسلهم واني اظن انه لايحسن بنا ان نضيع وقتنا الآن في تصوير الجنة والحوض والصراط مما احدث ادبا طريفا حتى في القديم فهكذا نرى الجاحظ يسخر بكل ذلك اذ يذكر في كتاب الحيوان جعفر الطيار ويقول : هو له جناحان يطير بهما في الجنة حيث شاء وهو ليس من الطير ونرى ذلك ايضا في رسالة الغفران عند الكلام عن الحساب والجزاء وانهما موكلان الى الله تعالى ويصف المعري الصراط ومرور الناس منه ويصف لنا الرجل الضخم الذي يجوز الصراط (والصراط ارق من الشعرة واحد من السيف) وجارية تحمله زقفونة ثم يصف لنا بكل طرافة اباريق الخمر وانهار العسل والجواري الحسان .

ليس هذا الهام ، ولا الهام رجوع عيسى بن مريم الى الارض وتكسيره الصليب وقتله الخنزير وليس الهام حديث موسى مع ملك الموت وهل لطمه ام لا وانما يهمنا العمل .

ونحن نستطيع ان نتبع العقائد القديمة في الاداب الحسنة والسنة النبوية ونتشرف بذلك لما في ذلك من فضل على حفظ الصحة والنظافة وحسن الهيأة والاداب . وانا نلاحظ ان بعض الاشياء قد سقطت بطبيعتها كسقوط اوراق الشجرة وهي جزئيات كنهي السنة عن لعب الشطرنج ـ فهذا النهي لايمكن ان يبقى قائما والذي نريده ان يبقى ونود ان يذكره شيوخنا وفقهاؤنا هو ان النبي لعن وان السنة لعنت الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والنامصة والمتنمصة والواشرة والمؤتشرة .

يجب ان نستخلص من سيرة النبى عقلية تريدان تحمل الناس على احترام الانسان ذاته واحترام الصالح العام وتريد ان ترفع هذه الامة الى معالى الاخلاق ومكارم الافعال واعلى الدرجات وانها قد اهتمت بالكبيرة والصغيرة ترى ذلك فى آداب التحية والدخول الى المنازل واحتشام النساء وادب المؤاكلة وغسل اليدين قبل الطعام وعدم الاكل مما بين يدى صاحبك

ونحن نتبع السنة كذلك بدون تردد فى الاغتسال والنظافة وحفظ الصحة وقد نجد جزئيات لانستطيع الوقوف عندها فما يهمنا مثلا ان ندخل المساجد بتقديم الرجل اليمنى وان ندخل الى الخلاء بتقديم الرجل اليسرى أم ما هذه العقلية المتطيرة ؟ اما تحية المسجد فنعم واما الرجل اليمنى او اليسرى فان ذلك من التطير وكذلك لاينبغى للرجل ان يعبث بخاتمه مستمعا للخطيب او لصاحبه ولا ان يفرقع اصابعه

انا نؤمن لاباسلام ونتبع هذه العقائد فى قرارتها ونعتز بديننا ٠

« ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا »

غير ان غالب العقائد تلح الحاحا شديدا على المشاكل التوحيدية والشكلية اما فى عصرنا فانه يحسن منها ايجاد عقيدة تلح الحاحا شديدا على المشاكل الاخلاقية العملية الايجابية ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وان الامام حسن البنا نفسه رحمه الله اظهر فيما كتبه منعقيدته ان الظروف لا تقتضى الآن حروب الديانات والمجادلات والمناقشات بل تقتضى توحيد الصفوف وجمع الكلمة لابقاء الدين ولابقاء الدولة الاسلامية ٠ ولذلك يجب ان نفهم الشريعة ليست قانونا يهم الفرد وشخصه فقط بل يهم الامة والدولة جمعاء ذلك ان الواجبات الفردية قد تحدث خللا فى نظام الدولة كما ان واجبات الدولة قد تحدث تشويشا فى واجبات الفرد وحياته الشخصية فعلينا الآن ان نجتاز مرحلة صالح الفرد الى مرحلة صالح الامة والجماعة وساضرب لذلك مثلا الزهد فلكل مسلم ان يتزهد فى كل وقت وفى كل بلاد ولكن هل نستطيع ان نسمح للرجل ان يتزهد بقطع النظر عما قد يلحق عائلته ثم جيرانه ثم امته جمعاء من الضرر بعد ذلك التزهد ؟ وهل يمكن لاربعمائة مليون مسلم ان يتزهدوا فى آن واحد ؟

ثم ان السنة تظهر لنا فى كثير من اقوال العلماء ان الخصومات فى الدين تمحق الاعمال وتبطلها فلا نستطيع ان نتجادل فى جنس الملائكة والعدو على الابواب مثلا

وقد اجمعت العلماء لاخلاق بينهم انه لايكفر احد من اهل القبلة بذنب ولانخرجه من الاسلام بمعصية فنحن نرجو للمحسن ونخاف على المسيء وامره بينه وبين خالقه ٠

ولقد قال ابو اسحق الفزارى المتوفى بالكوفة سنة 185

« لان اجلس الى النصارى فى بيعتهم احب الى من الجلوس فى حلقة يتخاصم فيها الناس فى دينهم »

ولقد قال سعيد بن جبير قتيل الحجاج بالكوفة سنة 95

« لان يصحب ابنى فاسقا شاطرا سنيا احب الى من ان يصحب عابدا مبتدعا »

فغايتنا حينئذ ابتغاء مرضاة الله بطاعته فليس الغاية عبادة الله لان الله يحب من يعبده ولانه فى حاجة الى ذلك بل الغاية اسعاد البشرية لان مايسعد البشر يستحسنه الله وهل ابتغاء مرضاة الله هو ابقاء الناس فى الجهل والعبودية والتخلف والجوع والعصبية ام اخراجهم من تخلفهم الى فرحة الحياة ؟ وانا نجد فى السنة امثلة لاسبيل الى الامتناع من تحويرها وغض الطرف عنها كالسارق وقطع يده

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونكاح « ماكسبت ايديكم » فهل يمكن ابقاء العبيد سنة 1960 كما هو موجود فى بعض البلاد الاسلامية ؟ وهل يمكن ان تكون الجروح قصاصا النفس بالنفس والعين بالعين الى غير ذلك من الاشياء ( كالميراث وتعدد الزوجات) التى يجب تنقيحها حسب مبدأ الاصول القارة والضرورات المتبدلة٠

لقد قال عمر رضى الله عنه : **ان الله عز وجل لم يامر عباده الا بما ينفعهم ولم ينههم الاعما يضرهم** ٠ «وجاء فى القرآن » **يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر** » و « **يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا** » و « **ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** » وبين ايدينا احاديث كثيرة تظهر صالح الانسان قبل كل شيء لقد جاء فى الحديث فى خصوص الصوم مثلا :« لاتزال امتى بخير ما عجلت الافطار واخرت السحور » فيظهر ان الشر يبتدىء فى هذه الامة عندما تقدم سحورها وتبطىء افطارها او عندما لايوجد سحور قط ويحذف بتاتا من الفقر

فهنا لك حينئذ مواطن تظهر فيها الضرورة بوبها الفقهاء ولكنهم لم يغلقوا ابوابها وهنالك تخلف دينى اصاب الاسلام مثل ما اصاب اللغة والسياسة والعلوم والحياة الاجتماعية والاقتصادية عامة ٠

فهل من خروج من هذا التخلف كله ؟

والضرورات ليست للافراد فقط يسهلها كل واحد منهم لنفسه شخصيا فيزكي الفقهاء بعضهم بعضا ويعفون عن انفسهم لقد قال تعالى « الم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكى من يشاء » وانما يجب ان تجعلها الدولة للجماعات لان الدولة لاتجعل الضرورات بغيا وعدوانا بل تجعلها فى الصالح العام وقال تعالى : « **فمن اضطر غير باغ ولاعاد فان ربك غفور رحيم** » ايظهر من هذه الآية ومن الدين الاسلامى عامة ان الذنب لا ذنب اذا كانت النية صافية وان العبادة لاتقبل اذا كانت النية فاسدة – وان المحاولين الاصلاح فى الاسلام يعلم الله ان نيتهم حسنة وانهم لايصنعون ما يصنعون بغيا وعدوانا وانما ضرورة اكيدة ٠

ولعل اهم شيء فى الدين الاسلامى عندى هو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠

قد ترى رجلا فى الشارع فتبتسم له لانك تعرفه ٠

وياتيك آخر ويسلم عليك فتنكره

فالمعروف ما هو مقبول عند الامة الواعية بواجباتها وبمعتقداتها وبتاريخها وبشخصيتها والمنكر مالاتعرفه وتنكره وتخرجه منها ومن معتقداتها ومن برامجها ٠

المعروف فى زمن بعينه هو لباس العمامة للرجال وجعل الحجاب للنساء وقد ياتى زمان آخر يكون فيه المعروف حسر الراس وسفور المرأة مثلا واولو الامر منا هم مسؤولون على حماية المعروف وتطبيقه والنهى عن المنكر بدون رياء ولا مداهنة ٠

فلئن راى اولو الامر منا ان 70 فى المائة من هذه الامة يأتون الفعل ويظهرون ضده فلماذا ياترى تريدنا ان نعد الاقلية تعمل المعروف والاكثرية تاتى المنكر وخصوصا اذا كانت الضرورة الاقتصادية او الاجتماعية هى التى تجبرنا الى ذلك وليس الطغيان او حب الكفر للكفر

والقرآن هو الذى خلق الآيات المحكمات ( ما اسميه انـا الاركان القـارة والاصول الخالدة) وهو الذى تكلم عن الضرورات وفتح

فلنتفاهم ! عندما يتكلم القرآن عن السفر والمرض ويجعلهما ضرورتين اكيدتين فما هى حقيقة المرض وما هو معنى السفر • هل هناك حقيقة علمية لاريب فيها للمرض هل المريض هو الذى له 41 درجة حمى والصحيح السالم الذى يمشى فى الشوارع على رجليه ؟ فنحن نعلم والاطباء يعلمون ان كثيرا من اولئك الذين نراهم يمشون ويكثرون من المشى ويعملون ويجتهدون فى العمل انما هم مرضى بالسل او بالقلب او بالدم او مرضى بنقص فادح دائم فى الغذاء وانا اعرف من وصف لـه الطبيب الحمية وحمله على اتباعهـا فلم يعترف بها المريض ولم يفطر فى رمضان وترك وصف الطبيب وراء ظهره وانتم تعرفون ان الناس ببلادنا صاروا على قدر حاجتهم الى التغذية متشبثين بالصوم عبيدا لعبادتهم ، عبادا « لسيدى رمضان » لا لله عز وجل ، يلقون بايديهم الى التهلكة ، وذلك الذى لايقتات فى اليوم حسب الحد الادنى من الكالوريات فهل هو مريض املا والذى ينقص جهازه قسم من اقسام المغذيـات فهل هو مريض املا ؟

ثم السفر ! فهل هو اهم من الجهاد فى سبيل البقاء فى هذه الحياة ؟

http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل الذى يركب حماره ويسافر نهاره لبيع دجاجة يربح فيها 50 مليما اهم للدولة الاسلامية والدين الاسلامى من ذلك الذى ينهض يوميا بالعمل المثمر فيغرس يوميا 6 او 7 شجرات لتبديل اقتصاد بلاده ؟

هذه بالطبيعة عجالة اذ لانستطيع ان ندخل فى مناقشة جميع الجزئيات ولعل احسن خاتمة هى ما حدثنا به ابوعبدالله احمد بن على بن علاء الجوزى قال نا عبد الوهاب الوراق الشيخ الصالح قال نا ابومعاوية عن الاعمش عن مجاهد قال « افضل العبادة حسن الرأى »

انى قد اتيت العالم مسلما وسابقى مسلما فى عقليتى وحضارتى وثقافتى وقد ابقى مسلما ايضا فى دينى وانما هذا شىء بينى وبين خالقى •

ثم انى افحص هذا الاسلام واعالجه فاجده دينا متسامحا وحضارة اوسع من الدين بمعناه الضيق • فاظفر فى الحقيقة بكنز ثمين يحسن بى ان لا احطمه كما يحطم الطفل العوبته اذ هى ملك له ومتاع •

ثم انى ادرس على ضوء التاريخ هذا الدين وما انتجه من عقلية وحضارة واطيل الدرس واتمعن حتى ارى كيفية استعمال هذا الكنز كما يتعلم العامل كيفية استعمال الآلة الجديدة التى توضع بين يديه وكما يقرأ المريض كيفية استعمال الدواء الذى وصف له ٠

واخيرا ارى انه يجب اقرار بعض المبادى فى الحضارة الاسلامية وتوسيع معنى الدين الاسلامى واخراجه من « مقصورة » العبادات التى وضعه فيهـا الفقهاء وانى ارى انه ينبغى لنا احداث عقيدة اصلاحية عصرية تقدمية (وانما الاسلام التقدم !) تعتمد على نظرية التطور والاستحسان وغـايتها الصالح العام ٠ وسوف توضح هذه العقيدة اصول الدين القارة ومواطن الضرورة فى عصرنا ٠

ان الهى اله ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وانى اتقبل دينى كما اتقبل جنسيتى وانى سوف اجتهد ان اعمل ـ من وراء صالح امة من الامم ومن وراء ازدهار بلاد من البلدان ـ الى ازدهار الانسانية جمعاء والى صالح البشرية جمعـــاء ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مخطوط
الحبيب بن عياد

# مِنْ رُوَّادِ ثورتنا الفكرية..

http://Archivebeta.Sakhrit.com

# تعريف بابن أبي الضياف وتاريخه

بقلم الدكتور الطاهر الخميري

## حياتــه



هو ابو العباس احمد ابن الحاج بالضياف ابن عمر ابن احمد بن نصر ابن محمد ابن الولى احمد الباهى العونى من قبيلة اولاد عون ٠

ولد بمدينة تونس سنة 1219هـ (1804م) فى ولاية الباى حمودة باشا ، وكان ابوه كاتبا خاصا للوزير يوسف صاحب الطابع فحرص على ان يكون ابنه تكوينا يؤهله لمثل تلك الوظيفة ٠

درس ابن ابى الضياف على المشايخ احمد بن الخوجه واسماعيل التميمى ، ومحمد البحرى بن عبد الستار ، ومحمد بيرم الثالث ، وابراهيـم الرياحى ، ومحمد بن الخوجة ، واحمد الابى ، ومحمد بن ملوكة ، ومحمد المناعى ، وعبد الرحمان الكامل ٠ وأشار الى كثيرين غيرهم بقوله « شيخنا » ، ولا نعلم أدرس عليهم أيضا أم قال ذلك على سبيل التأدب والاحترام ٠

وبعد اتمام تعلمه اولاه الباى حسين خطة العدالة سنة 1237 ، ثم خطـة الكتابة بديوان الانشاء واختصه بكتابة سره سنة 1242 ، وارسله الى استانبول « فى غرض سفارة » للدولة العثمانية سنة 1246 ٠ ولما تولى احمد باى قربه ورفع منزلته ، وارسله الى استانبول فى سفارة ايضا سنة 1958 ، واستصحبه فى سفرته الى باريس سنة 1262 ٠ وفى ولاية محمد باى كلف بتحرير نص الدستور المسمى بعهد الامان سنة 1274 ٠ وفى ولاية الصادق باى سمـــى وزيرا للقلم والاستشارة ، وبقى فى تلك الوظيفة الى ان استقال سنة 1288 ٠

توفى ابن ابى الضياف يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة 1291 هـ (1874 م) ، ودفن حذو والده بجامع يوسف صاحب الطابع بتونس ٠

## تـــــاريخــه

عنوان تاريخ ابن ابى الضياف هو «اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان » ، فى اربع مجلدات ٠ وهو مرتب على مقدمة وثمانية ابواب وخاتمة ٠

وتشتمل المقدمة على عقدين ، العقد الاول فى الملك واصنافه فى الوجود ، والعقد الثانى فى الالمام بأمراء افريقية من الصحابة والتابعين ومن تبعهم • والابواب الثمانية لملوك بعدها لم تدون اخبارهم

الباب الاول فى دولة حمودة باشا ابن على ابن حسين بن على تركى (1782 — 1814 م)

الباب الثانى فى دولة عثمان باى (1814 م)

الباب الثالث فى دولة محمود باى (1814 — 1824 م)

الباب الرابع فى دولة حسين باى (1824 — 1835 م)

الباب الخامس فى دولة مصطفى باى (1835 — 1837)

الباب السادس فى دولة احمد باى (1837 — 1855 م)

الباب السابع فى دولة محمد باى (1855 — 1859 م)

الباب الثامن فى دولة الصادق باى (1859 — 1882 م)

والخاتمة فى تراجم بعض الاعيان المتأخرين من العلماء والوزراء والكتاب وغيرهم

طبع العقد الاول من المقدمة فى تونس 1319 هـ ، وبقية الكتاب لاتزال فى صورة مخطوطات توجد منها عدة نسخ فى المكتبات الخاصة والعمومية بتونس

لاعنوان الكتاب ، ولا ترتيب ابوابه ، ولا العناوين المكتوبة بالاحمر فى بعض النسخ ، ولا الفهارس التى وضعها بعض النساخ ، ولا « الفوائد » التى نبه اليها القراء فى حواشى بعض النسخ ، ولاكل هذه مجتمعة يمكن ان تعطينا فكرة صادقة عن محتويات هذا الكتاب •

فى الكتاب معلومات عن النظام السياسى فى تونس فى القرن التاسع عشر والعلاقات السياسية بين تونس والجزائر وطرابلس وتركيا وفرنسا وايطاليا وانكلتيرا ، وفيه نصوص معاهدات ووثائق مختلفة حررها المؤلف بنفسه ، وفيه معلومات عن النظام الادارى والنظام القضائى والنظام المالى والنظام الجبائى والجيش والبحرية والشرطة والصناعة والتجارة ، وطبقات الشعب من البدو والحضر والمماليك والعبيد والجوارى والعملة الاجانب واهل الذمة ، ورجال الدين وعلاقاتهم بالامراء والوزراء ، وموقفهم من الوهابيين والشيعة والصوفية والاولياء ، واسلوب الحياة فى قصور البايات والوزراء وبيوت الطبقات المختلفة ، والتعريف بعدد من مشاهير العلماء والادباء وقواد الثورات وزعماء الاصلاح •

http://Archivebeta.Sakhrit.com

## طريقته في التأليف

ينقل المؤلف خبرا عن احد الوزراء فيقول :« وكنت حاضرا مع الوزير ويشير الى وثيقة فيقول :« واعطاني المسودة وهي عندي بخطه » ويروى حكاية فيقول :« وكان شيخنا رحمه الله يذكر هذه الحكاية وسمعتها منه » ، ويحقق مسألة تتعلق بمال الدولة فيقول : « وتفصيلها في زمام بخط ابي وبخطي لايزال موجودا ، ويستشهد بأقوال ابن خلدون في مواضع كثيرة معترفا باهمية آرائه ، ولكنه لايتردد في اعلان مخالفته لابن خلدون في نظرية من اخص نظرياته وهي نظرية اعمار الدول ٠٠ ويقتبس من « التاريخ الباشي » لحمودة بن عبد العزيز في عدة مواضع ، ولكنه ينبه الى ان ذلك الكتاب هو « اشبه بالمديح » ٠ ويكتب ترجمة ابيه الشيخ بالضياف فيقول عنه انه « لم يكن في العلم ذا بضاعة سوى انه حسن الخط »، وانه « طلب التكسب وآثره على العلم » ٠ ويتحدث عن الامير عقبة بن نافع فلا يتحرج من القول بأن المنافسة بينه وبين ابي المهاجر دينار كانت السبب في خراب مدينة القيروان وان ذلك كان « من مبادي ضعف الاسلام » ٠

هذه الدقة في البحث والتحقيق ، والصرامة العلمية التي لاتتردد ولاتتحرج ، وقول ما يعتقد انه الحق ولو على ابيه ، هذا بعض ما يكسب تاريخ ابن ابي الضياف قيمته الخاصة ٠

## لغتـه

يقول المؤلف في مقدمة كتابه انه قد « التزم بقدر الطاقة توضيح العبارة وتقريبها للافهام بحسب اصطلاح التخاطب والاسماء والالقاب الجارية في عرف البلد » ٠ وهذا ما فعله في كل اجزاء الكتاب ٠ استعمل الالفاظ العربية بمعناها العامي التونسي مثل « التأويل » بمعنى اتخاذ التدابير و « التنزيل » بمعنى التجنيد ، وكتب الكلمات الاجنبية كما يتلفظ بها في عرف البلد « دونانمة » التركية بمعنى اسطول يكتبها « دونالمة » ، و « أمزوار » البربرية بمعنى رئيس بوليس الآداب يكتبها « المزوار » و BRIG الانكليزية يكتبها « بريك » كما يتلفظ بها الايطاليون او الفرنسيون الذين اخذت عنهم ٠ وحتى « افريقيا » يكتبها احيانا « الابركة » او « الافركة » كما يتلفظ بها من يقلد تلفظ الايطاليين او الاسبانيين ٠

## اسلوبه

يقول المؤلف في المقدمة ايضا ، انه كتب تاريخه في سن الشيخوخة ، « والشبيبة ولت ، والقريحة كلت ، والقوى القت مافيها وتخلت » ٠ لايظهر اثر ذلك في نصوص الرسائل والوثائق الرسمية ، لالتزامه السجع في اكثرها ، والسجع يساعد على ضبط التراكيب وتقصير الجمل ٠ ويظهر اثره واضحا في بقية الكتاب حيث يكثر الاستطراد والاقتضاب واضطراب التراكيب النحوية واختلاط الضمائر وتتابع الجمل المعترضة ٠

## مصادر ترجمته


1) شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف ص 394 القاهرة 1349 هـ.
2) عنوان الاريب لمحمد النيفر ج 2 ص 130 – تونس 1351 هـ.
3) تاريخ الادب العربى لبروكلمان ، ملحق ذيل 2 ص 888 ، لايدن 1942
4) المنتخب المدرسى لحسن حسنى عبدالوهاب ص 142 ، القاهرة 1944
5) ايضاح المكنون للبغدادى ، ج 1 ص 16 ، استانبول 1945
6) هدية العارفين للبغدادى ج 1 ص 190 ، استانبول 1951
7) خلاصة تاريخ تونس لحسن حسنى عبدالوهاب ص 170 ، تونس 1373هـ
8) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، ج 1 ص 255 دمشق 1957
9) الاعلام لخير الدين الزركلى ج 1 صـ 135 ، الطبعة الثانية 1954 – 1959
10) اسباب انتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية – لجان غانياج – ص 86 – باريس 1959



**الطاهر الخميرى**

رئيس قسم التأليف والترجمة والنشر

بكتابة الدولة للتربية القومية



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com


# نصوص

## من « اتحاف اهل الزمان ، باخبار ملوك تونس وعهد الامان »

### (1)

مفاوضة ابن ابى الضياف مع عارف باى فى شان التنظيمات لما توجهت الى استامبول فاتح سنة 1258 ، شريكا فى السفارة مع الشيخ المسن الخير ابى محمد خير الدين كاهية ، عن المشير الباشا ابى العباس احمد باى للدولة العلية ، على عهد السلطان عبد المجيد خان صاحب الخط الشريف المتقدم ذكره رحمه الله ، والوزير يومئذ ابو عبد الله محمد عزت باشا ، وكان سفرنا فى شأن التنظيمات. فقال لى الوزير : ان السيد عارف باى (الشيخ الاسلام) له كلام معك . وكان يومئذ من اعضاء مجلس الشورى . ولما اجتمعت معه كلمنى فى شان التنظيمات وفوائدها والحالة هذه ، وان الامة المحمدية صارت الآن من جور الملوك والعمال فى خطر ، الى غير ذلك مما هذا سبيله . فقلت له : ان التنظيمات الخيرية يتعسر اجراؤها فى بوادى المغرب ، ووضحت له

السبب بخطابة ظننتها تروج عنده ··· فأجابني بأن التنظيمات عبارة عن تأمين الناس في انفسهم واموالهم وأعراضهم ، وكل كيفية يحصل بها هـــذا الامن فهي المطلوبة · وطال الكلام معه في ذلك الى ان قال لي بمحضر اعيان : ناشدتك الله ورسوله ، أترى في معقول او منقـول ان خليفـة رسول اللـه (السلطان العثماني) مقيد التصرف بقانون لايكاد يتجاوزه ، وصاحبكم (باي تونس) مطلق التصرف يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد ؟ فقلت له : هو مقيد بالشريعة وبما يقتضيه الحال من المصلحة : فقال لي : أهو معصوم ؟ فقلت : لا · فقال : ان الله امر المعصوم بالمشاورة في الامر · فقلت : يستشير رجاله وثقاته · فقال لي : ألهم قدرة على الزامه الحق ان خالف ؟ ولم يطلب منــي الجواب لانه الجأني الى الكذب والمكابرة ··· ثم قال لي : ان هذا الامر يحبــه المؤمن الذي يمحض النصيحة لله ورسوله وأيمة المسلمين وعامتهم ، وتكرهه الملوك الذين يحبون مشاركة الله جل جلاله في كونه لايسأل عما يفعـل ولا معقب لحكمه ، وأتباعهم ممن يقـدم حظ نفسه عـلى المصلحة العامة ، كالولاة الذين قطع سيف التنظيمات أظفار اغتيالهم ·

وقد وقع في بعض جهات الاناضول من العامة ما يشبه ثورة ، قائليــن بجهلهم : التنظيمات دين جديد ، والدين عند الله الاسلام · ووقع الاتفـاق على قتالهم · فقلت للمجلس : لابد قبل ذلك من اعذار وانذار · وطلبــت التوجه لهم ، وأمر السلطان بذلك · فوصلـت الى بلدانهـم ، وجلست عـلى منابرها ، ودعوت الناس جمعا بعد جمع ، وقرأت لهم الخط الشريف ، وبينت لهم أدلة اصوله من الشريعة ، وكررت لهم الايضاح حتى انتبهوا ، وكأنما أنشطوا من عقال ، ودعوا لسلطانهم بالنصر والاعانة · هذا غالب الفـاظه ·

وتحقق عندي ان الولاة لما جاء الحق وزهق الباطل ، وانسدت في وجوههم ابواب الجور ، اوحوا الى اوليائهم بما بثوه في جهلة الناس ، منشرالوسواس الخناس ، حتى تكلموا بما تكلموا · وكفى الله المؤمنين القتال · ولما رجعت سألني السلطان ، فقلت له : نعم السلطان ونعمت الرعية وبئست الولاة ·· ولا يستقيم الحال الا بتقديم ولاة أمناء ، والخير لاينقطع من الامة ، وقد أديت ما وجب علي من النصح ·

## (2)

الامير الاي سليم يجند السودان

وفي السنة 1252 ، أشار الوزير شاكير ، باثبات طابور في عسكر النظام

بالقشلة من السودان المعتوقين ، واستحسن الباى هذ الرأى • وفى الحين أمر الوزير الامير الاى سليم بتنزيل ألف رجل من السودان المعتوقين • ولم يأذنه بكيفية أخذهم ، ولا بكونه فى اليوم • فاخترع الامير الاى كيفية انتجها فكره •• وهو أنه أتى قشلة الحاضرة ، وجمع العسكر ، وأمرهم بالـدوران خلال البلاد وضواحيها ، وأن يأتوه بكل اسود اللون من حر ومملوك ووارقلى وحمرونى وفزانى • واتـوا ببعض الحـوانب والبوابة ، حتى اتـوا بسائس مراكيب الباى • وكل من يؤتى به يوقفه الامير الاى بالقشلة ، حتى المخازنية الذين يعرفهم قال لهم : اذا سرحتكم الآن يرجعونكم ••• وتوجهوا الى منوبة وغيرها ، وأتوا بساتين الباى وغيره ، واخذوا المماليك والخدمة منها • ووقعت فى البلاد هيعة غلقت بسببها كثير من الحوانيت • حتى تمكنوا بانفار سمر ، خدمة بدار قنصل الفرنسيس • فـارسل القنصـل الى البـاى فى الحـين ، يستكشف خبر ذنبهم ، لانهم أخذوا خارج داره • وتواردت عليه الشكايات فى الحين من ارباب المماليك بباردو وارباب بساتين منوبة • فوجم ، لانـه كان يظن أنه يتوقف امضاء اذنه على كيفية معقولة يعلمها قبل وقوعها • هذا ورسول القنصل بباب دار الباى فى باردو ينتظر الجـواب • فلـم يسعه الا ارسال وزيره مصطفى صاحب الطابع فى الحين الى القشلة ، لان الوزير شاكر بالمحمدية ، وأمره بتسريح من بها من السودان • وحملنى الوزير معـه ، فأتى القشلة فوجد الامير الاى على كرسى أمامها ، شامخ الانف كأنه استولى عنوة على مدينة مات فى حربها اكثر جيشه •• وصحـن القشلـة مملـوء بالسودان على الارض كأنهم أسرى حرب •• والعساكر لم تزل قادمة بهـم جماعة بعد جماعة كالسوائم • فقال للامير الاى بلطف : ما هذا الصنع ؟ فقال له : لايتأتى الجمع بغير هذه الكيفية ، ولما يجتمع ما بالحاضرة من السودان يأتى كل مالك ويأخذ مملوكه ، وما يبقى فهو معتوق • فقال له : هل أحضرت لهذا العدد العشاء ؟ وأعرض عن جوابه •• وبلغ امر الباى بتسريح جميعهم وخرجوا كالحمر المستنفرة وغص بهم الباب •• وتحدث الناس بها أياما •

## (3)

## جماعة البوقـــــال

(سنة 1252)

وبعد ذلك اظهر للباى •• ان المناسب احصاء من فى المملكة من الصغار القادرين على حمل السلاح ، ويطرح منهم من له مانع ، ويؤخذ القدر المحتاج

اليه من الباقي بالقرعة ·· وبدأ بالحاضرة ، فأمر مشايخ المدينة والربضيين باحصاء سائر من في الحاضرة من الشبان بأسمائهم في دفاتر يعرضونها عليه · فجمعوا مشايخ الحومات ، وشرع كل واحد يقيد من في حومته ·· فهاج بعض ضعفاء العقول من الارباض وقالوا ان اهل الحاضرة لايؤخذ منهم العسكر ، وابناء الترك هم العسكر لثبوتهم في ديوان المرتب ، واي حاجة الى كثرة العسكر الذي يزداد بهم مصرفنا ويقل بهم دخلنا ، لان من يثبت في العسكر النظامي تتعطل عن البلاد منفعته وتثقل عليها نفقته ونحن مسلمون وكل مسلم عسكري عند الحاجة · وهذا الزي لم يأمر الله به ، ولا تتوقف عليه المدافعة ·· واجتمع كثير من هؤلاء بمقام الولي سيدي محرز بن خلف رضي الله عنه ، وشربوا من حوضه وتعاهدوا على نصر بعضهم البعض ، وشرعوا في تكثير عددهم · وكل من يوافقهم يأتون به الى مقام سيدي محرز، فيشرب من بوقال مملوء بماء حوضه ، وتسموا « جماعة البوقال » · ثم اتوا ديار اهل المجلس الشرعي وقالوا لهم : انتم الامناء على ديننا وأيمتنا في صلاتنا ، ولكم أولاد مثلنا في هذه الحاضرة يجوز عليهم ما يجوز على اولادنا ، نطلب منكم خطاب الباي على لساننا بأنه لاطاقة لنا على اعطاء اولادنا تمضي اعمارهم في السعي وهم في موضع واحد كدواب المطاحن لايؤملون غير ذلك ، وهم اعانتنا على المعيشة ، كما لانتحمل عادة لم تجر على اوائلنا من أوائلك ، وعسكر تونس ترك وزواوة ·

http://Archivebeta.Sakhrit.com


الفكر
مجلة ثقافية
تصدر شهريا
مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مزالي
المراسلات ـ ص ـ ب ـ 556 تونس

# ابن خلدون وسبيل النظر الحر

بقلم محمد الطالبي



من بين الشخصيات الافريقية لعل اهم شخصية الهمت البحث والباحثين ، واسالت حبر المحبرين ، هى شخصية عبد الرحمان بن خلدون . فلقد افردت له ، فى اهم لغات العالم المتمدن، مئات الكتب والمقالات حاول احصاءها اخيرا الشيخ هانرى بريس (Henri Pérès) من جامعة الجزائر ، كما حاول ان يعرف بأغزرها فائدة حافظ دار الكتب الوطنية ، السيد عثمان الكعاك ، فى نشرية صدرت بتونس بمناسبة معرض بروكسال الاخير ، قدم لها مدير دار المعلمين العليا ، الاستاذ احمد عبد السلام . كل هذا دليل على اهتمام فائق ومتزايد ، وسبب هذا الاهتمام هوان عبد الرحمان ابن خلدون علم من اعلام العقل والنظر الحر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يكن الرجل مثاليا فى اخلاقه ، بل قل اننا عندما ننظر اليه من وراء عدسة الاخلاق المثالية كما نتصورها ، نميل الى عدم التسامح معه ، لاننا لا نتمالك عن مطالبة كل عظيم بالكمال فى كل الميادين ، حسب سلم قيم صارم ضبطنا درجاته بكل دقة . ابن خلدون جاب البلاد « غربا وشرقا » حسب تعبيره فى طليعة كتاب طبع حديثا بعناية محمد بن تاويت الطنجى ، وافرده المؤلف الى التعريف بحياته ورحلته . سفر بين ملك غرناطة وملك قشتالة والتقى بتيمرلنك ، خدم الحفصيين وبنى مرين ، خبر صداقة لسان الدين بن الخطيب وعداوة الامام ابن عرفة ، حظى بضيافة رؤساء القبائل العربية وعاش فى الاوساط البربرية ، قام بكتابة العلامة ودرس الفقه ، حاك السعايات السياسية ، والقى الخطب الجمعية ، وولى القضاء .

فان لم يدن ابن خلدون بوطنية ، فلعل السبب فى ذلك هو ان متصور الوطنية لم يولد بعد ، وان لم يخلص لاسرة ، فلعله لانه كان يبحث عن اسرة لها من « العصبية » ـ حسب المبادى التى ضبطها فى مقدمته ـ ما يمكنها من لم

شعث الامة وبسط نفوذ حقيقي قوى ينفى شبح التمرد والحروب الاهلية التى طالما ارخ لها وشهدها • ومهما يكن الامر فابن خلدون قد خبر اعماق الحياة وسبر اغوارها فرجع من غوصه في صلبها بنظريات طريفة ، وملاحظات عديدة ، وعلم جديد لم يسبق اليه ، علم وليد المشاهدة ، والنظر الحر ، وعدم التقيد والتقليد

ان عبقرية ابن خلدون تتجسم في عدم الخضوع ، وعدم الرضى بحمل الاسفار وترويج بضاعة الغير ، وذلك في عصر كان فيه النقل عماد العلم والحافظة وعاءه • ابن خلدون ابى الا ان يفهم • اراد ان يفهم سر التاريخ وأبى ان يرى فيه مجرد حوادث متسلسلة متعاقبة لامبرر لها سوى ما سبق به القضاء والقدر ، ولافائدة ترتجى من التأمل فيها سوى استخلاص العبرة • فمزيته الكبرى في البحث عن علية الحوادث ومسبباتها ، وهكذا انتقل التاريخ على يديه من مجرد سرد قصص واساطير الى بحث تنير سبيله قوانين الفحص والتثبت والنقد • ان المؤلف لم يستطع دائما ـ خاصة عندما يتعرض الى تاريخ الشرق ان يطبق قوانين النقد التى وضعها وبسطها في المقدمة ، غير ان هذا لاينقص شيئا من فضل وضعه لها • انه يستحيل على شخص واحد ، مهما كان عبقريا ، ان يكتب بمفرده تاريخا علميا لكامل البلاد الاسلامية وغيرها • ان ابن خلدون مهد سبيلا لو ولج من بعده لكان ادى الى نتائج خصبة جدا ، لكن العصر لم يكن واعيا مواتيا ، فضاع السبيل في مفاوز الجدب الفكرى العربى ، حتى اكتشفه الغرب من جديد بوسائله الخاصة بعد قرون ، واكتشف ابن خلدون ايضا والفت اليه نظر بنى جلدته •

http://Archive.Sakhrit.com

ولقد الح ابن خلدون في الفات النظر الى تاثير البيئة ، والجغرافية الطبيعية والبشرية ، والتيارات الاقتصادية الكبرى ، والحركات السياسية والاجتماعية في مجرى التاريخ • وهكذا خرج التاريخ عن التاريخ للحوادث ، فاصبح عرضا نقديا لكامل الحضارة الاسلامية ، بتمامها وحذافرها ، من دون اغفال النواحى العلمية والادبية • فهذا التامل في الحضارة ككل متماسك الاطراف انتهى به الى الارتقاء من سطح التاريخ الى سطح آخر ، سطح علم جديد ، سطح فلسفة التاريخ • وكانت الحضارة الاسلامية ، كما شاهدها خاصة بالمغرب وعجم عودها اخذ نجمها في افول فاتت فلسفة ابن خلدون مرة قاسية متشائمة ، نتيجة اعتمادها على الواقع كما كان • فوضع ابن خلدون قانون الاطوار الثلاثة التى تمر بها الدول بصفة دورية حتمية ، اطوار الشباب ، والكهولة ، والهرم • فكل نظام سياسى ، في نظره ، مثاله الحتمى الفشل النهائى والاضمحلال ، ثم يخلفه نظام آخر جديد شاب ، يجرى في شراينه دم حار لايلبث طويلا حتى يتطرق اليه الفتور ثم الجمود ، وهكذا دواليك تدور عجلة التاريخ • فابن خلدون لم يعش في ظروف تساعد على ادراك حركة التاريخ واتجاهه نحو الرقى المتواصل

مهما التوت الطريق وعاقت سبيلها المنعرجات • فلفسفته فى التاريخ كانت فلسفة دورية ، والحركة التى كانت تدفع الكون حسب نظريته حركة عود على بدء ١٠انما الفلسفة تأويل للطبيعة ، وانه من العسير جدا ان يطالع مطالع حروف التقدم وآياته فى البيئة التى عاش فيها ابن خلدون ،اذ تلك الحروف والآيات كانت خفية جدا ، مطموسة حقا • فابن خلدون ادرك كل مايمكن ان يدركه عبقرى عاش فى تلك الظروف واعتمد ذاك الواقع الخاص المحدود ، ادرك ان التاريخ حركة ، وان تلك الحركة تخضع الى قانون العلية ، وان ذلك القانون ، يمكن للعقل ، بفضل التجربة والملاحظة والتأويل والاستقراء ، ان يميط عنه اللثام

وهكذا اهتدى ابن خلدون الى حقيقة خطيرة جدا ، اهتدى الى ان المجتمع الانسانى لايشذ على ناموس الطبيعة العـام ، وان الفوضى التى تبـدو كأنها تسوده وتعبث به حسب مشيئة الرياح المتعاكسة انما هى نظام من النظم غربت على العقول قوانينه لتشعبها ودقتها • وحاول ابن خلدون ان يلتمس بعض تلك القوانين فى طبيعة الاعراب والحضر ، وفى الخصب والجدب ، واستقامة الاقتصاد وفساده وفى غير ذلك من الاسباب الاجتماعية ، ففتح باب علم الاجتماع ، ولم يسعفه الحظ ، فلم يلج اهل قرنه الباب الذى فتحه لهم ، ولم يشعروا بفتحه• وبقى الامر كذلك حتى فتح الغرب الباب من جـديد بعد ان مر زمن • فابن خلدون ، وقد سبر اكثر من غيره اعماق الماضى وسلك شعب الحاضر ، استطاع ان يستنبط القواعد القارة وان يكشف عن بعض قـوالب المجتمع ومحركاته فلقد جمع الى غزارة اطلاع مكنه من الاحاطة باهم علـوم عصره دقة المـلاحظة والقدرة على الهضم والتاليف خاصة ، فمكنه ذلك من ان يشرف على الواقـع ، فيبنى النظريات العامة ويحكم بناءها • وهكذا تلمس فى كتبه « عقلية » جريئة معتدلة تبث فيها الحياة ، وتعلل الحوادث ، وتشرح اسباب الوقائع ، فاذا بك تدرك ان الكون لاتسوده الفوضى ، وانه سلسلة من مسببات يمكن ان نفقـه اسبابها • وحاد ابن خلدون هكذا عن طريق الفلاسفة الذين كانـوا يسلطون قوى العقل على المجردات ، ويسبحون فى عالم الماورائيات الفسيح ، بل قل انه ولج بالفلسفة سبيل الواقع ونزل بها الى الارض ، وعكس نـور العقل عـلى دقائق الحياة الدنيوية محاولا ان يحل الغازها•وهكذا زاد رقعة الفلسفة اتساعا ونشلها من الافراط فى التجرد ، وزج بها فى نطاق الحسيات والفاعلية •

وهكذا لم يقتصر ابن خلدون على احصاء الحوادث وحشو وطابه بهـا حتى يقال فيه عالم احاط بعلم الاوائل • ابن خلدون اراد ان يفهم ، وفى سبيل هذا الفهم ، كان منهجه منهج النظر الحر ، وكان بحثه بحثا علميا •

**محمد الطالبى**
استاذ اللغة والآداب العربية
بالجامعة التونسية

# العقل فى تراث ابن المقفع

بقلم عبد القادر المهيري



بديهى ان نقول ان التقليد من العوامل المسببة لتقهقر العالم الاسلامى وتخلفه فى الميدانين الفكرى والمادى اذ ليس التقليد الا رضى بالامر الراهن ونفورا من كل تغيير يطرأ وكبتا لامكانيات الحياة الكامنة فى كل انسان . انه تخصيص المتقدمين بملكة الابداع واعتراف لهم بفضل مطلق ييأس معه المتأخرون من القدرة على الخلق فتزول عنهم الثقة بعقولهم وينشأ فى قرارة نفسهم مركب العجز وترنو ابصارهم الى الماضى ليهتدوا بهديه ويعرضون عن المستقبل فيسيرون نحوه سير من ليس له من الزاد الا القليل انه غض من العقل وشك فى امكانياته وانكار لقدرته على الهداية الى الحق والخير

وتتجلى نزعة التقليد خلال تاريخ الفكر الاسلامى فى محاولات مختلفة اهمها مقاومة البدع مقاومة لم تفتر قط والعمل على كبت ارادة الأجتهاد والقضاء عليها ولم ينتبه خصوم الاجتهاد الى انهم بسعيهم هذا يصدون الحياة عن مجراها الطبيعى ويقضون عليها من حيث لايشعرون ولقد نجحوا بعض النجاح فى ذلك فان لم يتمكنوا من تسديد الضربة القاضية التى يعقبها العدم فلقد استطاعوا تخدير المجتمع الاسلامى واغراقه فى غفوة دامت قرونا ولئن لم تستأصل الحياة من الحضارة الاسلامية فبفضل نزعة معاكسة قاومت منذ فجر الاسلام نزعة التجميد وامن اصحابها بسنة التطور وضرورة الخضوع له .

ولعل ابن المقفع من اول من آمنوا بهذه السنة وجندوا عقولهم للتنويه بشأنها وافنوا حياتهم فى سبيلها ويلوح ذلك فى الغاية التى رسمها لنشاطه الفكرى والمواضيع التى اختارها لما ترجم او الف من كتب فكلها تمتاز كما يقول هو بحرصها على تجلية الابصار واحياء التفكير واقامة التدبير ...

ولقد كان الانسان بكل مافى هذه الكلمة من حياة وجمود وعقل وعاطفة ورغبة واعراض ومحامد وعيوب محور هذه الكتب اذ كانت الغاية اصلاح حياته ونفسه ووسائل الاصلاح نوعان : اصلاح يفرض على الانسان فرضا

بالنظر الى مثل عليا قد تكون عنه اجنبية لاتحرك شعوره ولاتثير حماسة واصلاح يكون فيه المرء لنفسه رادعا ولاعوجاجها مقوما يعرض فيه سيرته على قيم آمن بها ويبدى حكمه فيها اعتمادا على مبادىء اقتنع بها من تلقاء نفسه هذا الاصلاح يقوم على العقل ويقتضى الثقة بالانسان وبامكانياته العقلية ٠

ولقد اعتبر ابن المقفع ان العقل هو القيمة العليا السائدة لكل ما يتعلق بالانسان فهو « الدعامة لجميع الاشياء والذى لايقدر احد فى الدنيا على اصلاح معيشته ولا احراز نفع ولا دفع ضرر الا به ٠٠٠»

ولاشك فى ان هذا الاعتبار يبوىء الانسان المكانة اللائقة به فى سلم المخلوقات اذ به يعترف ابن المقفع بحرية الانسان فى التفكير والتصرف من ناحية ويبين مسؤوليته فى الحياة من ناحية ثانية

ومن الملاحظ انه لايرى العقل وقفا على طائفة من الناس بل هو عنده شيمة من شيم الانسان مطلقا فهو « غريزة مكنونة فى الانسان كامنة كالنار فى الحجر ٠٠» وهكذا لايخص به جيلا دون جيل ولايعتبر ان الناس يتفاوتون فيه بتفاوت المكان والزمان

وكما انه ينوه بشأنه ويعزو مكانة الانسان وسموه اليه فهو يندد بكل ما يناقضه ولايساعد على انمائه او يدل على التغافل عنه فاستمع اليه وهو يشنع فى كناية طريفة بالتقليد وعواقبه قائلا :

http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب من غير اعمال الروية فيما يقرؤه ٠٠٠ كان ٠٠٠ كالرجل الذى طلب علم الفصيح من كلام الناس فأتى صديقا له من العلماء له علم بالفصاحة فاعلمه حاجته الى علم الفصيح فرسم له صديقه فى صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه ووجوهه فانصرف المتعلم الى منزله فجعل يكثر قراءتها ولايقف على معانيها ثم جلس ذات يوم فى محفل من اهل العلم والادب فأخذ فى محاورتهم فجرت له كلمة اخطأ فيها فقال له بعض الجماعة : انك قد اخطأت والوجه غير ما تكلمت به ٠ قال كيف اخطىء وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهى فى منزلى فكانت مقالته لهم اوجب للحجة عليه٠٠٠»

فاقتناع صاحب الصحيفة بترديد ما نقل سلوك لايتماشى مع العقل ومنطقه ومقتضياته وموقفه مناقض لاخص خصائص الانسان بل هو من عمل الآلة اقرب ولحركاتها اشبه ٠

وليس العقل عند ابن المقفع ملكة تسمح للانسان بالتحليق فى سماء

المجردات وليس دفاعه عنه اغراء بالخوض فى عالم الافكار والآراء وتنسيقهـا والتأليف بينها باغفال الواقع والانقطاع عن ضرورياته واحتقار ظروفه فالعقل لايمكن ان يفصل عن حياتنـا فى هذه الدنيا ومفعوله فيها نافـذ يخضعهـا لسيطرته ويوجهها حسب مبادئه ولئن كانت «٠٠٠غاية الناس وحـاجاتهم صلاح المعاش٠٠٠» « فالسبيل الى دركهـا العقل الصحيح٠٠» ولايمكن ان يفصل بين الرأى وامتداده فى الواقع والا فقد ميزته كرأى « فأمارة العقـل اختيار الامور بالبصر وتنفيذ البصر بالعزم ٠٠» والعلم الذى يحصل بواسطة العقل « لايتم الا بالعمل ٠٠٠»

وهكذا توجد بين العقل و « الدنيا » اى الواقع علاقة متينة فـلا يمكن ان يتصور عقل بلا « دنيا » ولا « دنيا » بلا عقل وما كان من الامور قائما عـلى غير العقـل « او شك ان يتداعى ويتصدع ٠٠»

ويلوح لنا بهذه الطريقة ان ابن المقفع بتمجيده للعقل لـم يمجد الانسان لامتيازه بهذه الملكة وبالحرية المنجرة عنها فحسب بل يمجده كذلك لانه خلق ليسعى ويكد ويبنى فلا سمو الا لمن توفرت فيه هذه الامور ولاسعادة الا لمن ادرك اتصال بعضها ببعض والتحامها

وقد يتساءل عن مكانة الروح فى تراث ابن المقفع وقد يعتبر ان هذا التأويل لآرائه يتضمن انكارا لنظرته الروحية الى الكون ودعوته الى العمل فى سبيل السعادة القصوى

وحقيقة الامر ان ابن المقفع لايفصل بين الدين والدنيا ولايقيم حاجزا منيعا بين السعى للدنيا والعمل للاخرة ولايرى تناقضا بين حيـاة دنيوية سعيدة وسيرة مثلى فهو لا يفصل حديثه عن الدنيا والآخرة فيعتبر انه « من لاعقل له فلا دنيا له ولا آخرة ٠٠» ويعتقد ان « غاية الناس صلاح المعاش والمعاد ٠٠» ويرى ان التدبير الحسن الذى يمكن من حيـاة صالحـة لايختلف عن التدبير الذى تنجم عنه « مكارم الاخلاق٠٠» وكما ان العقـل اساس كل بنـاء فهو يشمل كل المعانى الروحية « كالحلم والصبر والوقار ٠٠» وان احتـاج اليه المرء لسلامته فى الدنيا فهو يحتاج اليه لينجو فى الآخرة اذ هو السلاح الذى يقاوم به الانسان هواه حتى لايسوقه الى التهلكة فاذا ماجعل « هواه مسوفا ورأيه مسعفا ٠٠» فلا بد من النجاة ٠

وهنا ايضا تتضح ضرورة العمل للانسان فلا فائدة فى ان يميز برأيه الفضيلة عن الرذيلة اذا لم يسع لتغليب الاولى واستئصال الثانية ولهذا وجب على « الحكيم » العمل « والتعهد لما اختير واعتقد ووضع ذلك موضعه قولا وعملا » وتبرز هكذا وظيفة « الحكيم » فهو فى المجتمع ممثل العقل والداعى الى الاستنارة بنوره والساهر على انجاز ما يوحيه ٠ ان اعتزل فى برجه العاجي يكون قد اخل بمهمته واهمل واجبه اذ « الواجب على العلماء تقويم الملوك بالسنتها وتأديبها بحكمتها واظهار الحجة البينة اللازمة لهم ٠٠»

ولايخفى ان هذه النظرة الى العقل تفرض على « الحكيم » ان يظل متصلا بعصره اذا أراد ان يعمل ومماشيا له اذا رغب ان يكون عمله نافذا ومواجها لمقتضياته اذا كان حريصا على ان يفيد

ولقد بدأ ابن المقفع بنفسه لان مايبلغه الانسان بسيرته اهم مما يصيبه بلسانه فاختار لمؤلفاته مواضيع لها مساس بالانسان وبعصره ومجتمعه فعالج فى كتابى « الادب الصغير » و « الادب الكبير » نواحى اجتماعية يرى انه لايمكن للعاقل ان يغض الطرف عنها فلم يتردد فى المجاهرة بالنصيحة وفى فضح الاسباب الموجبة لها من اضطراب سياسى وظلم بعض من كانت بأيديهم مقاليد الامور ولم يخش نقمة الفقهاء عندما ندد فى رسالة الصحابة بما يسود القضاء فى عصره من فوضى وتناقض فى الاحكام واختلاف فى الطرق حسب الظروف التاريخية والجغرافية ودعا الى سن قانون موحد يرضى العقل ويضمن العدالة وكل ذلك نتيجة لنظره فى مجتمعه ودرسه لمظاهره وحالة افراده وعرض استنتاجاته على العقل والراى السديد ٠

لقد كان شأن ابن المقفع فى عصره شأن كبار المفكرين يفاجئون معاصريهم بآراء جديدة فيؤذون ويعمل على تشويه سمعتهم وتسند اليهم نعوت يكون لها مفعول سحرى فى ذوى العقول الضعيفة وتنسب اليهم اخلاق تجعلهم منبوذين من معاصريهم ٠ فقد اتهم عبدالله بن المقفع بالزندقة فكان كلما ذكر امام بعضهم اقشعرت جلودهم ولعنوا الشيطان

ولعل قتله فى ظروف غامضة لم يكن مجرد صدفة ولعل آراءه الجريئة المناهضة لمصالح طائفة من الطوائف هى التى آلت به الى ان يقتل ٠

ولقد قتل فى منتصف القرن الثانى الهجرى اى قبل ان يولد الجاحظ وقبل ان تزدهر حركة الاعتزال وقبل ذلك العصر الذى يعرف فى تاريخ الحضارة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاسلامية بعصر العقل ولهذا يجب ان يعتبر الباعث الحقيقى للتيار العقلى الذى لاحت بوادره منذ عصور الاسلام الاولى وسانده فى مراحل التاريخ الاسلامى كلها مفكرون تجاوز نفوذهم الادبى احيانا نطاق الثقافة الاسلامية .

**عبد القادر المهيرى**

مبرز فى اللغة والآداب العربية

استاذ بالمدرسة الثانوية للبنات بنهج الباشا

---

**ابـو القاسم الشابى والشاعرية الحق**

**تصويب غـلط**

وردت فى مقال للاستاذ الشاذلى بويحيى اغـلاط نصوبهـا كما يلى :

ـ ص 2 : السطر قبل الاخير :

صوابه « فهو اولا شاعر قومه وعصره سواء اقبل عليهما فمثلهما او اعرض عنهما . ففى جفائه كما فى عطفه طابع ... »

ـ ص 3 : سطر 6 : ارادة جبارة **هى** ارادة الحياة ...

سطر 19 : **ان** جهلها **الهوى** ...

ـ ص 4 : سطر 6 : قصيدة **للشابى**

ـ ص 6 : السطر الثالث قبل انتهاء الصحيفة : القوى **القادر**

ـ ص 9 : سطر 6 : فيلقى بها **الفاظا** تتلو ...

الفكر : السنة 5 ـ ماى 1960

# ثورة واحدة !..
## على الاستعمار والتخلف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# الصبا الجديد

بقلم فرحات الدشراوي



**من عليه واجب الخلـق والانشاء**
**لابـد لـه من التحطيم والهـدم**
**« نيتشه »**

كانما الثورة ناموس من نواميس الطبيعة تقتضيها الحياة حتما لايخلو من نزعاتها كائن حي ، فلا مفـر للمرء منهـا في بعض اطوار حياته ولابـد للشعوب منها في بعض اطوار تاريخها ٠

فكم شاهدت البشرية من ثـورات دامية صاخبة ولكم عصفت ريح الثورة في جل اقطار الدنيا على ممر الاجيال ، فلا تكاد امة من الامم يخلو تاريخها من اطوار حاسمة تمخضت عما اعتراها من سورات الاضطراب وتولدت عما قد هزها من تيار ثورة طبيعية متجددة ٠

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وان الثورة على اختلاف غاياتها وتنوع وسائلها وكثرة مظاهرها وتعـدد اسبابها وعواملها لها وجهان سلبي وايجابي ٠ فامـا الثورة السلبية فقـوة مطلقة كالسيل العرم وا كالحريق الطامي قوة قاضية على كل قوة لايمنع من بأسها مانع ولايصمد في وجهها صامد ، نارآكلة تسقط لهولها عزائم الجبابرة وتفشل عندها همم الطغاة ، تيار جارف تتكسر له قيود العبودية وتتصدع هياكل الجور ، قوة التحطيم والهدم ، ثورة الفتك والقتل ثورة العنف والدماء٠

واما الثورة الايجابية فقوة التجديد والانبعاث والخلق والانشاء والحـزم والتقدم ، ثورة هادئة تقتضي الحكمة والتبصر وتتطلب ضبط الامور واحكام البرامج وتحتاج الى الصبر على المصاعب والمثابرة على السير ، ثورة الاخوة والمحبة ، ثورة لبناء الحياة

وقد يتحد الوجهان السلبي والايجابي وتكتمل الثورة اكتمالا فتنطلق بها الحياة انطلاقا وتتحول الامور تحولا عميقا ، وكثيرا ما ينفرد اول الـوجهين بنفسه ولايكون الثاني ، فتظل الثورة بنراء لاتدر بخيرها ولاتينع ثمارهـا اذ لابـد من البناء بعد الهدم ولابـد من الاخوة والمحبة بعد القتل واهراق

الدماء وقلما يستغنى الـوجه الثانى عن الاول لان الثورة الايجابية متولـدة عن الثورة السلبية ومتممة لها ، فلاخلق الا بقلع الجذور وقطع الجذوع ولاخير الا بعد استئصال الشر والانتصار على الفوضى والفساد ٠

وانما الانسان ثـائر بالطبع يدفعه دافع غـريزى الى العصيان والرفض متمرد على الآلهة والاديان ، ساخط على الاقدار والدهر ، مارق على الشرائع يتحدىالقوانين ويخرقالاحكام ، خارج على الجماعة ينشد حرية مطلقة وطهارة ناصعة ويحلم بحياة طليقة ولاضغط فيها ولاقيود ٠

لكنها ثورة عاطلة لاحـول لها ولاقوة ما دامت فرديـة عمياء ، فـلا شأن للمتمرد يتمرد وحده ويعصى ولا غاية له من عصيانه ولاحكمة له من تمرده ٠ وانما هى شعلة من نار لاتلبث ان تخمد او نور فتيلة لا قبل لها بسواد الظلام الكثيف ٠ وقلما تخلو الثـورة الفردية من بهاء البطولة ومحاسن الشجاعة ونخوة الاقدام ٠ ولطالما تغنى بها الشعراء وحفلت آداب الامم بثايات العصاة المارِدين فنوهت بشأنهم وعظمت افعالهم ونسجت لهم اكاليل من الابهة والمجد

الا ان ثورة الفرد مع بهائها وطهارة عنصرها عقيمة مـالم تلتحم بثورة جماعية شاملة لقوم يدفعهم دافع واحد ويحركهم أمل واحد ، قوم يسعون الى حياة جديدة قد اتفقوا على احكام اسسها وتدعيم اصولها وآمنوا بهـا ايمانا راسخا وهبوا كلهم لبنائها وتطبيق ما اعتنقوا من مبادىء سامية وانجاز ما سطروا من اهداف ٠

وانما تتميز الثورة الجماعية عن ثورة الفرد لا بشمولها وعمقها فحسـب بل بما يعززها من ارادة شعبية ثابتة وما يغذيها من قيم انسانية عالميـة وما يحركها من أغراض نبيلة ونوايا طاهرة ٠

وانها تتميز أيضا عن الفتنة بمثل هذه القيم العالية والاغراض الشريفة ، فالفتن عمياء لاتفقه لنفسها مصيرا ولا أصول لها تحكمها ولا غايات واضحة تبرر اندلاعها وتضمن لها نجاحا وثمرة صالحة ٠

فلكم قاست الامم من الفتن عرقلت نموها وقوضت أركانهـا وحطمـت مؤسساتها فأدالت دولها وسلطت عليها الهرم والهلاك ٠ ولكم أخطا التاريخ عند القدمـاء فى تقدير الثورة حق قدرها فخلط بينها وبين الفتن وقـاسها بها فطفحت صفحاته بالاضطرابات والقلاقل الدامية ٠ وقلما أدرك بعض المؤرخين قبل العصور الحديثة خصائص الثورات وما بينها وبين الفتن مـن فروق فظلت احـداث جليلة غامضة وبقيت اطوار كثيرة من حيـاة الانسانية مبهمة خفيـة الاسباب مجهولة العوامـل تستعصى عـلى الفهم ولا تستنير الا بتحليل ما قام اذاك من ثورات حاسمة بدلت الاوضاع تبديلا وخلقت الدنيا خلقـا جديدا ٠

ولعل ما يحدث فى صفحات التاريخ من الالتباس بين الثورات والفتن قد ينتج عن اشتراكها فى وسائل العنف وبعض مظاهر البطش ٠ الا ان الثورة

لاتقتصر كالفتنة على اعمال السيف وسفك الدماء بل لعل من أنجع وسائلها اعمال الفكر وسلطان العقل وانتشار العلم ونمو الثقافة وازدهارها ولعل من انفع مسالكها مسالك التعاون وتظافر الجهود فى طمأنينة مستمرة وسلام شامل ٠

فكم أغفل التاريخ من ثورة سلمية هادئة أهملها أصحاب الاقلام ولم يشهدوا اثناءها سيوفا مشهورة أو رؤوسا مقطوعة أو دماء سائلة ٠ وكم من مرة تحولت الاحوال وتغيرت الاوضاع وتحورت عقلية الناس تحورا عميقا فى يسر ووئام ٠ وكم من أمة استقامت أمورها بفضل ايمان ابنائها وتضامنهم ونضج عقولهم وصفاء قلوبهم فحققت نهضة جبارة وثورة كبرى أصلحت شأنها وأفاضت عليها نعمة طيبة وخيرا جزيلا ٠

فأمة كانت بالامس مكبلة الايدى مثقلة بأغلال الذل والضعف قد ارخى عليها الاستعمار سدول الظلم والاحتقار واضطرها الى المسكنة والفشل وفرض عليها الطاعة والخضوع فمالت الى الاستسلام وكاد اليأس يقتلها وكادت تموت من فرط الخزى والمهانة ٠

وثار ثائر من ابنائها انكر عارها ورفض بؤسها وابى ضيمها وخشوعها وعلا صوته بقصر هلال يعلن الحق ويفضح الباطل ويبعث الامل فى الحياة ويبشر بالكرامة والحرية ويعد بالاستقلال والعز ٠

وتأفف ذوو الدعة والخمول والقعدة الرجعيون وقالوا : اضغاث احلام وضرب من الجنون ، وتضاحكوا همزة لمزة وهزوا الأكتاف وادارا الرؤوس تهاونا واهمالا ٠ فلكم قاسى الانبياء والمصلحون والزعماء من أقوامهم ، كادوا لهم ضروبا من الكيد وكالوا لهم الاذى كيلا واذاقوهم مرارة الاهانة وألوان العذاب

وابتسم المتجبرة الطغاة وتطاولوا سخرية واستخفافا وقالوا : متمرد تمرد وعاص عصى مضطرب يفتن على فرنسا ! لاحول له ولا قوة ! يضرب على يديه ويقطع لسانه ويلقى فى ظلمات السجن ووحشة الاعتقال !

الا ان المجاهد ثابت وصابر واستمات تضحية واخلاصا ووقف بطلا صادقا ٠ وتعزز حزبه لثباته وصبره وفتح للشعب سبيل الحق وأنار له طريق الشرف والعز ٠ فأجابه صحبه بالبوادى والقرى وأسواق المدن وشوارع الحاضرة ورددت صوته ألسنة الاحرار وصدح الوطنيون بنشيد الرفض والكفاح وهب الناس ينفضون غبار المذلة والانكسار واندفعوا للبعث والرجاء ٠ فعصفت عاصفة الثورة فى المدن والجبال وبرز المقاومون للقتال والتفت صفوف الشعب أنصارا على الظلم والبغى وقام جنود الوطن رجالا ونساء ، شبانا وكهولا ، شيوخا وأطفالا ، واضطرمت نار الحرب ٠

وعصفت عاصفة القمع والارهاب وانهال الطغاة على الشعب قتلا وتقتيلا وتطاولوا بمدافعهم وطائراتهم والجيش الغفير وحسن العدة وقوة العتاد ٠

لكن الشعب صبر على الكفاح وثبت لشدة القتال وتبرز القائد حنكة وأجاد خبرة ومهارة وأتقن ألوانا من السياسة والحذق ؛ وصمد المقاومون ووقفوا صناديد ابطالا وسالت دماء الشهداء الابرياء ·

وتصدع هيكل الظلم وتقوض صرح الباطل وتساقطت أو صال الاستعمار وتقطعت تقطيعا · ورفرف على البلاد علم الحرية الحمـراء وشع فى النفس نور الكرامة وامتلأ الفـؤاد حبورا ويسرا فرفعت الامـة رأسها عالية الهمة عزيزة الحـــال ·

لقد ثار ثائر بالامس وقاد أمته الى النصر والفوز بحقها فى الحياة فأثمرت ثورته الاولى سيادة واستقلالا · ثم اتخذته الامة رئيسا فقام ينفض ثـوب الاحتلال وينزع عنها أسمال المحنة ويعالج أمراض الاستعمار ويبنى عـــلى أنقاضه دولة منيعة الاساس عتيدة الاركان ·

وثار ثورة اخرى اعسر وابعد عمقا وابى على امته الدعة والفشل وانكر عليها التزمت والجمود · وانطلق يحدثها حديث الحق والصـدق وتجنب ألفاظ البهتان والرياء وآثر الحكمة واعمال الرأى وتـرك سياسة الافتـراء والغرور وسلك مسالك النهضة والتقدم وانتهج مناهج التجديد والاصلاح ·

وكأنما النهضة والتقدم أشد من قتال فرنسا وكأنما التجديد والاصلاح أصعب من كسر قيود العبودية وكفاح الاستعمار · فلقد قعـد المحافظـون اليوم كما احجموا بالامس وركنـوا الى الرجعيـة وانكمشوا فى خمـولهم وأنصتت فئة الى أساطير الغواة وانخدع قوم لاقاويل المنافقين وقام اصحاب الترهات والاباطيل للفتنة وقطع الطريق ·

الا انها أمة بلغت رشدها واستكملت وعيها من أمرها ووقفت على دائها وأدركت أسباب بؤسها ولمست علل تأخرها ، فلبت نداء الحزم والجد وكبتت صوت الفتنة والنفـاق وأقبلت تنشىء الحيـاة وتبنى لها اوضاعا عصريـة وتنسج حلة جديدة متينة الحوك نيرة الالوان ·

ولقد انبعث شبابها صيانة لسيادتها وذودا عـن حرمتهـا فاستبشـر بالاصلاح ونهض لمناصرته ووقف لانجاز أهدافه واعتنق ثورتها وقام يخوض غمارها اقداما وصدق ايمان ·

وانما ايمان الشباب بالثورة ايمان بالحياة وارادة للطموح والمجد · ومـا قوة الامم الا فى غزارة شبابها تقيها دواعى التقهقر والهرم وتضمن لهـــا التجدد والبقاء ·

ولن يمنع امتنا خذلان المحافظين ولن يصدها نفاق المنافقين ، فلقد ثبتت قوائم الدولة وتحصنت دعائمها ، ولقد غمرها نور الثـورة يبشر سلامـــا وخيرا مبينا ·

**فرحـات الدشراوى**
أستاذ اللغة والآداب العربية
بالجامعة التونسية

# كيف نخرج من التخلف

بقلم محمد العربي عبد الرزاق



سؤال يتردد على شفاه الناس ، ومشكل عويص يعترضنا فى كل حين ، كما يعترض شطرا هاما من الخليقة اليوم فكل يسعى الى اكتشاف الحل والى الاهتداء الى الطريق المثلى المؤدية الى الخلاص .

وقد اعتاد الناس فى مثل هذه الحال ان يتجهوا بتفكيرهم الى البحث عن الوسائل العملية الكفيلة باخراج الشعب من حالة التخلف الاقتصادى وقوده بسرعة الى حالة التقدم الصناعى والرفاهية المادية .

ونحن لانزعم اننا سنقدم فى هذا المقال نظرية طريفة فى بابها ولا ندعى فى هذا الميدان فتحا جديدا . بل قصارى الجهد ان نبدى بعض ملاحظات هى فى راينا هامة وكفيلة بان تعيننا فى سعينا المشترك للخروج من طور الجمود والركود والتخلف ، ومحاولة الالتحاق بالركب الزاحف نحو الازدهار والانعتاق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونقول فى بادىء الامر ان مفهوم كلمة التخلف يمثل هو نفسه مشكلا علينا حله قبل البحث عن العلاج . فالتخلف انواع عديدة نستطيع حصرها فى قسمين عامين : تخلف فى طبيعة البلاد وفى مواردها الاقتصادية ، وتخلف فى أهل البلاد كبشر من حيث مستواهم الاخلاقى والثقافى والانسانى . على ان الامر ليس من السهولة بهذا القدر اذ أننا نلاحظ ارتباطا متينا وتفاعلا عميقا بين « التخلف الطبيعى » و « التخلف البشرى » وماهما فى الواقع سوى مظهرين مختلفين لحقيقة واحدة .

واذا مارجعنا الى بلادنا التونسية ، التى يتفق الجميع اليوم على انها من البلاد المتخلفة اقتصاديا ، وحاولنا البحث عن اسباب هذا التخلف وانواعه لاحظنا فى اول ما نلاحظ ان التخلف الطبيعى وقلة موارد البلاد لاتقل قيمة ولا قدرا عن التخلف البشرى .

فاذا ما نظرنا الى الناحية الطبيعية المادية فنحن نجد ان اقتصاد بلادنا يرتكز بصفة خاصة على الموارد الفلاحية . ثم ان هذه الموارد الفلاحية التى

لايمكن ان تكون بمفردها اقتصادا عصريا متقدما ، هى نسبيـا قليلـة وفى معظمها غير مستقرة ٠ فهى رهن مناخ مضطرب لايستطيع المرء ان يطمئن اليه

ثم ان كميات المعادن الموجودة بمناجمنا هى الاخرى قليلة فيما عدا أملاح الكبريت (فوسفاط) ، فاذا ما اضفنا الى هذا ان البلاد التونسية تكاد تكون خالية من كل انواع الطاقة رأينا ان تركيز صناعة آليـة هامة يكـاد يكـون مستحيلا فى الظروف الحالية ٠ فهيكل البلاد خلو من تلك الروح الضرورية التى هى الطاقة : فليس لنا مناجم فحم ولا ينابيع نفط ولا انهار كبيرة قوية قارة المجرى يمكن الاعتماد عليها فى استخـراج كميـة ذات بال من الطاقـة الكهربائيـــة ٠

على ان هذه الاصناف من الطاقة التى عددناها وقلنا عنها انها مفقودة بالبلاد التونسية لاتكون فى الحقيقة جميع مظاهر الطاقة الموجودة بالكون ٠ بل ان انواعا أخرى من الطاقة موجودة منها المعروف ومنها المجهول وهـى ما تزال بكرا تترقب وسائل عملية تمكن الانسان من استخراجها من مخازنها الهائلـة ومن السيطرة عليها وتذليلها لصالحة البشرية فامامنا الطاقة الذرية والطاقة الشمسية والطاقة الكونية وغيرها مما عرفنا عنه نزرا يسيرا وغابت عنا منه اشياء واشياء ٠ اما موارد الطاقة الاخرى التى لم تكتشف بعد والتى لانعرف عنها سوى انهـا ممكنة وموجودة ، فليس من حـاجة الى ذكر الامكانيـات التى تخولنا والآفاق التى تفتحها أمامنا ٠

فالفقر فى ميدان الطاقة ببلادنا لايمكن ان يؤدى بنا الى اليأس والاستسلام بل يجب ان يكون فى رأينا سببا وحافزا يدفعنا دفعا الى العمل الدائـــب المتواصل فى سبيل بلوغ مستوى يمكننا ان نبدأ منه عملنا الجدى فى القضاء على التخلف بعد ان نكون قد وفرنا لانفسنا العدة والسلاح ٠ فللناس معركة ولنا معركتان : نخلق فى أولاهما السلاح لنكسب به فى الثانية الانتصار ٠

والرصيد الاساسى فى هذا الميدان هو الانسان ٠ فقيمة الانسان تتمثـل فى انه محور العمل للقضاء على التخلف ٠ فتخلـف البشر هـو اذن الـداء الجوهرى وما سواه من انواع التخلف انما هى اعراض تزول بزاول جوهرها ٠ فالطبيعة المادية غنية جدا وانما الاشكال فى أن يصـل الانسان الى خلـــق وسائل السيطرة عليها واستعمال بعض قـوى الطبيعة لاستغلال سائرهـا استغلالا منطقيا محكما ٠

فاذا ما حاولنا دراسة حالة « الانسان التونسى » دراسة نصارح فيهـــا

انفسنا ونجابه فيها حقائقنا وواقعنا مجابهة المخلص الامين فاننا نجد انفسنا بازاء حالة لايمكن ان تبعث على الاطمئنان • « فالإنسان التونسي » يجتاز في هذه الآونة ازمة تنذر بالخطر وتحتم اتخاذ تدابير سريعة وناجعة لتلافي الحالة • فالتخلف الحاضر هو قبل كل شيء تخلف في العقول وتخلف في القيم ، تخلف يعزى قبل كل شيء الى نقص في التثقيف ورثناه عن عصور طويلة من التقهقر والجمود ومازلنا نعانيه ونكابده رغم كل المجهودات والعزائم الصادقة •

ان المستوى الثقافي والعلمي كان منذ زمن طويل وما يزال منحطا ببلادنا اذا ما استثنينا بعض الشواذ القليلين • وهذه الحالة كان من نتيجتها ان جعلتنا دائما عالة على غيرنا في ميادين الثقافة والعلم ، ليس لنا فيها مشاركة ولا قول •

ثم انه لاسبيل الى الخروج من هذه الحالة المؤسفة ومن هذا التخلف العقلي ما دامت الاسباب التي ادت بنا اليه قائمة موجودة • فما عسى ان تكون اسباب هذا الخمول الذي اصابنا زمنا طويلا فجعلنا في سبات عميق نكتفي بمشاهدة التاريخ يمر من حولنا مشاهدة النائم يرى الحلم ولا يشارك فيه ؟ وبئس الحياة حياة قوامها فتور الحماس وفقدان الايمان وانحلال في القيم والاخلاق وجمود في العقل والتفكير ! اسباب هذه الحال كثيرة مختلفة ، لاتهمنا الا بقدر ما تمكننا من معالجة أدوائنا • ذلك ان بعض الناصحين ينصحنا بالرجوع الى « مبادئنا الاساسية » أو « مبادىء الاسلام » الصحيح » كما يسمونها اذ انها وحدها الكفيلة بان تخرجنا من ازمتنا الفكرية ومن ركودنا الى عالم الجد والعمل فنستعيد سالف مجدنا باستعادة أسس ديننا •

ومثل هذه الفكرة تبدو منطقية معقولة لاول وهلة ، فقد كان المسلمون في عصورهم الاولى قوما عاملين جادين في عملهم وقد ساهموا في بناء الحضارة البشرية بقسط هام • وقد كانوا في عصر الرسول بالخصوص يملكون كل الخصال التي ذكرنا انها تعوزنا اليوم من ايمان وحماس واخلاق وقيم • فيبدو حينئذ من البدهي ان ترجع كل تلك الخصال الحميدة الكريمة بالرجوع الى ذلك النبع القديم الاول من الاسلام •

لكن من أعار المشكل شيئا من التعمق والنظر يجد ان هذا الرأى لا يرتكز على أسس صحيحة ثابتة • فالاسلام ، مهما رجعنا به الى أصوله الاولى ،

لايمكن تجريده من خصائص أساسية تتمثل فى انه دين قبل كل شيء يرتكز على فكرة ما ورائية ويجعل للكون محورا هو الله ، يعجز عنه عقل الانسان وتفكيره مهما كملا ، وتتلاشى امام قدرته المطلقة قوة كل بشر مهما عظمت . وهذا الكائن المطلق هو أصل الكون وهو غايته ...

وقد صلحت مبادىء الاسلام فى عصر كان الهدف المنشود فيه هو اخراج أمة من عقلية وثنية فوضوية الى عقلية توحيدية يسودها شيء من النظام . فلما عرضت للمسلمين مشاكل دنياوية سياسية واقتصادية رأيناهم يسرعون الى ترك مبادىء الاسلام التى لم تعد تغنيهم فى شيء ليتمكنوا من حل مشاكلهم الحيوية حلا معقولا . ثم زاد الامر خطورة أن قبع المسلمون فى عصور الانحطاط كل فى زاويته باحثا عن ربه أو عن جنته وشياطينه يكتفى من العمل ومن الحياة بالخيال وهكذا اصبح نصيب الدنيا فى الاسلام – كدين – يكاد يكون مفقودا لولا الضرورة . وكان هذا الامر طبيعيا بالنسبة الى ايديولوجيا ما ورائية تجعل من هذه الحياة ممرا ضروريا وسراطا خطرا لايمكن تحاشيه للوصول الى الحياة الحقيقية المثلى ، حياة الآخرة . ولا يمكن إبقاء جوهر الاسلام مع تجريده من مفهوم الحياة الاخرى كهدف أساسى . ولايمكن كذلك التوفيق بين مقتضيات « الحياة الدنيا » والعمل على تحسينها وجعلها « جنة للبشر » من جهة ثم مقتضيات مفهوم الجنة المثالية الاخروية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولايمكن ان نتوسع كثيرا فى هذا الموضوع فى سياق هذا المقال القصير على انه يتضح لنا ان الرجوع الى ما يسميه البعض بطرق « السلف الصالح » فى مجابهة الحياة أمر غير ممكن . بل يجب علينا ان نسعى الى ايجاد طرق أخرى تمكننا من الدخول فى معركة القضاء على التخلف وقد وفرنا لانفسنا جميع أسباب النجاح ونستطيع ان نشير هنا الى بعض الاتجاهات التى نراها صالحة لهذا العمل .

واول عمل يجب التفكير فيه هو رفع المستوى الثقافى والعلمى لهذه الامة فى مجموعها . ويكون ذلك أولا بتسخير كل الامكانيات وببذل كل الجهود فى نشر التعليم وتعميمه ثم بالعمل على ان يكون هذا التعليم تعليما صحيحا مثقفا متجددا فى مضمونه ووسائله وطرقه بتجدد الحياة الوثابة الزاخرة .

وعلينا ان نجعل تعليمنا تعليما منسقا محكما يربى مواهب الانسان ويفتح له واسع الآفاق ويتدرج به الى العمل العقلى المتواصل المثمر حتى يصبح البحث العلمى غريزة فينا وجزءا مكونا فى شخصية كل متعلم منا . فاذا

ما أصبحت امكانية الخلق متوفرة فينا فقد كسبنا المعركة ووصلنا الى شاطىء السلامة • فيستطيع عندئذ علماؤنا العاملون الباحثون المخترعون اكتشاف طرق جديدة فى استعمال الطاقة وموارد جديد للثروة الاقتصادية فنختصر السبل اختصارا • فعلينا ان نمكن منذ الآن كل من تحدثه نفسه بالبحث العلمي ، من اساتذتنا ومثقفينا وطلابنا ، من وسائل هذا البحث وأن نشجعه فى هذه السبيل بكل ما لدينا من الامكانيات • والخطر كل الخطر ان نقصر نظرنا على المشاكل الحاضرة الوقتية فنمنع كل العاملين من مواصلة عملهم الجدى الهام بدعوى عدم امكانية الاستغناء عنهم فى الوقت الحاضر • بل يجب التوفيق بين مقتضيات المستقبل وبين حاجيات الحاضر الملحة ولا يمكن ان يكون هذا الامر الا برسم تصميم علمى صحيح لحاجياتنا فى كل الميادين وتوفير جميع اسباب النجاح لهذا التصميم العام والسهر على تطبيقه بأمانة • واهم اسباب النجاح بالنسبة لتصميم كهذا هو أن يكون جميع المواطنين على علم كامل ومعرفة تامة بالغاية التى يسيرون اليها وبالزمن الذى يفصلهم عن هذه الغاية • ويجب ان تكون جميع الجهود والعزائم والادمغة والقوى مسخرة بصفة تلقائية أو بصفة أخرى للعمل على انجاح مثل هذا المشروع • وهنا تتضح من جديد اهمية الدور الذى يمكن ان تقوم به الثقافة • فالقيام بتجنيد العزائم الصادقة لايمكن ان يكون الانتيجة لعمل تثقيفى متواصل يمكن الانسان من الخروج من ازمة القيم ومن التسلح بايمان قوى ثابت بنفسه وبنتيجة عمله وبقيمة الانسان فى الكون بوجه عام • وعندها يصبح له من الاندفاع ومن الحماس وروح التضحية ما يجعله قوة جارفة تبنى الحياة وتخلق التاريخ خلقا •

ويجب ان يكون رائدنا فى عملنا الاستفادة مما يجرى حولنا من تجارب الامم الاخرى واستعمالها كاسباب للوصول الى اكتشاف طرقنا الخاصة بنا فى العمل • ثم انه من الضرورى ان تكون هذه الطرق قابلة للتحوير بصفة مستمرة حتى تكون دائما ناجعة اما المبالغة فى الاعتزاز بالرأى ، والتمسك به بعد تبين ضعفه وعيوبه ، وعدم الاعتراف بالخطاء ، والضيق بقبول النقد فانها من اسباب العقود والتقهقر ومن عوائق عمل الجادين المؤمنين من الناس

**محمد العربى عبد الرزاق**
خريج دار المعلمين العليا
استاذ اللغة والاداب العربية
بالمعهد العلوى

# المثل الأعلى والثورة الفكرية

بقلم الشاذلي الفيتوري



اعوذ بك اللهم من الوساوس المتسلطة ! ولكنها وساوس يقتضيها كياننا ويفرضها علينا فرضا لامناص لنا منه. فلا حاجة ، اذن ، الى التماس العذر ان تناولت من جديد موضوعا كنت اثرته مجرد اثارة ، في تلميح وايحاء عبر عدد الفكر المخصص لدرس مشاكل اللغة العربية والصادر في فيفري المنصرم .

اقول انها وساوس لان هذا الموضوع كنت قد شرعت في بسطه سنة 1957 على صفحات جريدة « الطالب التونسي » . ولئن عدت ، في هذا المقال ، الى ماكنت قد بسطته اذ ذاك من معطيات الموضوع ، فذلك لان ماعانيته من تقليب هذه المسالة الحيوية جعلني اعتقد ان المشكل الثقافي هو ام المشاكل بالنسبة الى كل البلاد العربية . وزاد يقيني يقينا ما انتهت اليه الازمة المصرية خلال شهر اكتوبر 1956 .

فها انا اعود الى الموضوع بعد مايزيد على ثلاث سنوات واعتقادي ان المشكل لم توضح بعد معطياته الاساسية وما خطابها الزمن خطواته الاولى نحو الغاية المنشودة . اهو جمود الفكر العربي وتحجره بصورة نهائية ؟ ام هي الفوضى التي لاتدعك تتأمل المشاكل وما من شأنها ان تصل اليه في سيرها نحو الحلول ؟

الحق ان مشكلة الثقافة العربية ــ ولا اقول اللغة العربية ــ لاتزال على بساط البحث . واكبر خوفي انها الفت البساط منذ ان القيت عليه فاسترخت ونامت او تناوم عنها الفكر العربي وتثاقل ، لما في اثارتها من عقبات واتعاب واهوال !

### 1 ــ مفترق الطرق

المشكلة التي اثيرها في هذا الموضوع هي من باب محاسبة الضمير بالنسبة الى كل من تهمة شؤون الثقافة العربية وشؤون الفكر العربي : فعلى من اراد التجند لهذا العمل ان يتجرد من كل الظنون والاوهام وان يترك معتقداته

وأهواءه وان يتخلص من ربقة الحاضر واغلال الماضي ويصوب فكره ونظره نحو المستقبل ليتحسس السبل التى يتحتم لاعلى الثقافة العربية فحسب ، بل على الفكر العربى اطلاقا ان يتوخاها ان اراد الخروج من سباته والانطلاق من جديد تلك هى الشروط التى تقتضيها مهمة فحص شؤوننا الفكرية وعلاجها والبحث عن الوسائل الناجعة التى من شأنها اما ان تسرع بتطوير الفكر العربى طبق الاتجاهات التى قد يكون ارتسمها لنفسه دون راسخ عزم ، واما ان توجهه توجيها جديدا ، واما ان تحوره تماما للقيام بوظيفة ربما عجز فى الظروف الراهنة عن القيام بها لانه اصبح غير صالح لها ٠

ومهما يكن من امر فالمشكلة مشكلة صدق ونزاهة لاتحتمل التمويه ولا الاغراء بل تقتضى التثبت فى النظر والشجاعة فى التفكير لضبط المراحل التى علـى الثقافة العربية ان تقطعها كى تخرج من التأزم الى الازدهار ومن الركود الى التقدم السريع ٠

وقبل التمادى يجدر بالذكر ان هذه البسطة السريعة (التى سوف لاتخلو من نقص ولاخلل ، نظرا لاتساع الموضوع) ستعتمد دراسة الاحداث الفكرية عبر التاريخ كى نتمكن على ضوء دروس الماضى من التماس الحلول التى يقتضيها الحاضر والتطلع الى ما فيه ضمان المستقبل ٠ واوصى القارىء بان توخى هذه الطريقة يفرض علينا ان لاننسى ماللمشاكل الثقافية من مظاهر كلية ٠ فهذه المشاكل تفرض حتما على من اراد البحث فيها ان يعرج على الميادين الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية فلا يستغربن افراط المقـال فى بحث مسائل تاريخية بعيدة او ثقافية راهنة لمجرد ذكر حادث سياسى بسيط ، ولايستبعدن ما تولده الظاهرة الثقافية البسيطة من تأثير فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وذلك لما يوجد من علاقة جدلية واضحة بـين مفهومى حضارة وثقافة ٠ لان الثقافة دعامة الحضارة وقوامها ، وهى فى نفس الـوقت ، ان استوفت نموها واكتملت ، خـلاصة تلك الحضارة وتأليف نـواحى كسبها ورقيها تأليفا منسجما ، أوقـل فى اختصار ، ان الثقافـة هى بالنسبة الى الحضارة « مـا تحت البنية » (Infrastructure) وما فـوقها (Superstructure) لذلك كان اضمحلال الحضارة يتبعه اضمحلال الثقافة ، والعكس بالعكس ٠

وهذا الاضمحلال هو من الخصائص التى نتبين بها ثقافتنا ٠ وقـد ظهرت علامات المرض منذ عهد بعيد الا ان شعورنا بها لم يكن الا منذ القرن الاخير٠ ومابذل من مجهودات فى سبيل العلاج ، هنا وهناك ، لم يكن ناجعا لانه عوض ان نتحفز لاستئصال المرض اقتصرنا ـــ ومازلنا نقتصر ـــ على مخدرات جزئية لامفعول لها سوى تأجيل العلاج !٠٠

ولكن بعد هذه المحاولات الجزئية وما اذت اليه من خيبة وفشل ، وبعد ان اتضحت الاهداف بفضل ما جابهته وما تجابهه الاقطار العربية الحديثة العهد بالاستقلال من مشاكل وصعوبات ، يبدو اننا قد بلغنا مفترق الطرق ٠ وربما

كان هذا هو السبب فى تلك الحيرة الطبيعية التى تعرو كل من وقف لمنازلة النفس عندما يفرض عليه الاختيار ، تلك الحيرة التى تبدو على الـواعين من مثقفينا الشاعرين بخطورة الوضع ، فتشمل تفكيرهم وسلوكهم كلما حاولوا فحص المشكل الثقافى • وربما كان ذنب البعض منهم ان حولوا تلك الحيرة الى ضرب من النزعة الفكرية جاهلين او متجاهلين ان فى ذلك تهاونـا لا بما عليهم من رسالة عاجلة فحسب بل بالجيل والاجيال ! لان الحيرة هى قبل كل شىء تعطيل وشلل • واعتقـد ان نشاطنا فى الميدان الفكرى قد طالت بـه العرقلة والتعطيل حتى لا نتمادى به على هذه الحال فنأتى على بقاياه • بـل الواجب كل الواجب هو ان نقفز به فى ثبات وايمان لان الطريق قد عبدت ، وها هو السبيل يتسع •

## 2 ـ عـدوان كله عبـر !

ان نزعـة التحرر السياسى التى اتسمت بها كل الحـركات الوطنية فى البلاد العربية منذ القرن الاخير ، قد انقلبت ، فى هذه السنوات ، الى حركة تحريرية فى الميادين الاقتصاديـة والاجتماعية والثقـافية ، وبذلك دخلت الشعوب العربية فى طور الثورة الحق • ويمكن ان يقال ان هذه الثورة قد اتضحت اسبابها غداة ازمة سويز الفارطة • ويمكن ان يعتبر ذلك الحـدث صفحة جديدة من تاريخ الشعوب العربية ، كلهـا عبر لمن اراد ان يسايـر ذلك التاريخ ليكتشف الحلـول الناجعـة التى من شأنها ان تسرع بثـورة تلك الشعوب فى غير ما تفريط ، مؤمنا بأن ساعة الثورة الكلية قد دقت • ولن تفيدنا ازمـة « سويز » البتة ان نحن حشرناها فى نطاقهـا العاطفى واكتفينا ، لاننا نعلم انها اندلعت غداة امتناع الولايـات المتحدة من تمويل مشروع السد العالى ، فاضطرت مصر الى تأجيل ذلك المشروع الحيوى لفقدانها وسائل الانجاز وخاصة لفقدانها الفنيين •

انى لااقول باسطورة الشعوب الفقيرة ، بل هنالك شعوب متقدمة واخرى متخلفة • ولكن ـ خاصة ان اعتبرنـا الشعوب العربية وهى تملك وحدهـا ما يزيد على ستين فى المائة من ثروة العالم الاساسية : اعنى النفط ـ لاتوجد شعوب فقيرة بالطبع • وان اعتبرت فقيرة فما الفقر فيها الا افتقار الفكر ، لانها ان اصبحت متخلفة عن بقية الشعوب الاخرى ، فذلك لان الفكر فيها لم « يهتد » الى استغلال ثـروتها الطبيعية • فلذلك ولذلك خـاصة اصيبت وستصاب بمحنة الاحتلال الاجنبى • وما كانت مصر لتقاسى الاعتداء المسلح الفـرنسى ـ الانقليزى لو « علمت » كيف تتمكن من تشييد سدها العـالى بوسائلها الخاصة : فعجزها عن ذلك لايعلل بفقدانها المال والمال فحسب بل بمستواهـا الفكرى الـذى لايمكنهـا من الانتصاب صنوة لبقية الشعوب الراقية ••• وما قضية السد العالى الا جزئية ضئيلة • ولكنها جزئية قامت مقام الرمز : رمز القصور والاخفاق الذى آل اليه تأزم الفكر العربى وتـأزم الحضارة العربية وتأزم الثقافة العربية •

يقول « لاكروا » J. Lacroix : « والثقافة ان لم تكن متصلة بكل ما يكتشفه الانسان ويخترع ويكتسب وينجز ، فما هي الا مخاتلة !» فانظر الى ثقافتنا العربية تجدها في اطوارها الزاهرة مشعة على العالم باجمعه بما وصل اليه الفكر البشري اذ ذاك من كسب ورقي ٠ واليوم وقد قطعت صلتها « بكل ما يكتشفه الانسان ويخترع ويكتسب وينجز » فقد اصبحت مخاتلة لان الثقافة لاقيمة لها الا بانجازاتها الايجابية – واعني بهذا كل ما يدخل في نطاق الخلق العلمي والادبي والفني – ، تلك الانجازات التي من شانها ان تحرر المجموعة الانسانية التي تنتمي اليها تحريرا مستمرا ٠ ولو لم نجن على ثقافتنا بتركها تتوغل في اعماق المخاتلة لما حلت بنا كل تلك المآسي بما فيها مأساة السد العالي ٠ فعلى الشعوب العربية ومن لف لفها من شعوب آسيا وافريقيا ان تعلم انه يوجد « بالقوة » في كل بلاد ، ان لم نقل في كل بلدة وفي كل قرية ، سد عال ينتظرها ، من شأنه ان يسبب لها ما سببه لمصر من اخطار واتعاب ان هي لم تتأهب للكشف عن الحلول قبل اوانها ٠ لان كل هذه الشعوب في امكانها ان تستغنى عن « الصدقة » لو تمكنت من استغلال خيراتها بوسائلها الخاصة مع اقامة الدليل لأولائك الذين يعتقدون انهم قد احتكروا « الحضارة » والتقدم والرقي ، انها في غنى عنهم ٠ ولكن ، مع الاسف !، لسنا في غنى عنهم لان ثقافتنا اليوم ، بما هي عليه ، لاتمكننا من ان نكون كذلك : فعندما يعتمد الغرب حاضره ويفخر به ، يجيبه الشرق بماضيه ! وهذا الماضي قد تباعد ونأى بالثقافة العربية ٠ فالنزال اليوم ليس بين مستعمر ومستعمر بل بين مثقف وجاهل ، فأصبح توازن القوى بين الدول لايقوم على عدد الجيوش بل على المستوى الثقافي ٠ او بعبارة اخرى لاتكون السيطرة الا لمن مكنته ثقافته (وخاصة ثقافته العلمية) من الاحراز على اكبر الوسائل الفنية وادقها ٠ هذا ما يفسر لنا قلق الحكومة الفرنسية عندما تنظر الى تخلفها في الميدان الذرى ، وهذا ما يوضح لنا قول بعض الساهرين على الشؤون الاقتصادية في الولايات المتحدة ، عندما وقف يدشن بعض المعامل الذرية هناك (وكان ذلك سنة 1955) ، فقال :« على ابنائنا ان يتنافسوا في تعلم الرياضيات والا سيأتي يوم يكونون فيه مضطرين الى تعلم اللغة الروسية »! فما قول قادة الشعوب العربية ، ان كان هذا هو قول احد الامريكيين الحريصين على مستقبل بلادهم ؟!٠٠ فكأني بقائل يقول انه لم نضيع في ثقافتنا ولم نعرض عنها منذ زمن بعيد فحسب ، بل اقبلنا على مدرسة الاجانب (سواء كانوا فرنسيين ام انقليز) ، لا لقصد القيام بتلك الثورة الثقافية التي من شأنها ، وحدها ، ان تضمن لنا المستقبل ، ولكن لانه لم يكن في مقدورنا ان نفعل غير ذلك وما كنا مخيرين !

ولكن اليوم ، وقد استرجعنا حريتنا واصبح واجبا علينا ان نتطلع الى المستقبل بما فيه اوثق ضمان لهذه الحرية ، يحق لنا ان نطالب كل من عهد له بالسهر على كياننا ان يثبت في العمل الجدى حتى يمكننا من الخلاص من

تلك الظلمات التى مازلنا نتخبط فيها بعد ان طالت بنا سنوات العبودية. لذا وجب ان نعيد النظر فى اسس ثقافتنا وان نتحسس الوسائل التى من شانها ان تجعلنا نلتحق بقافلة الشعوب الراقية • واجب علينا اذن ان ننظر فى تلك الوسائل لا باعتبار المشاكل اليومية ــ رغم ما هى عليه من خطورة ــ بل بالتطلع الى مافيه ضمان المستقبل ، والخروج من التخلف الثقافى يقتضى تجنيد الجهود والشروع فى العمل حالا •

اقول هذا وأنا اعلم ان من غلب عليهم اليأس والقنوط فقالوا بخضوعنا الابدى للغرب ، فى الميدان الثقافى ، كثيرون يعتقدون انه من الجنون ان نحاول النهوض بثقافة لم تبق لها الا قيمة تاريخية • كما اعلم ان من غشى بصيرتهم التعصب كثيرون يقولون بان الثقافة العربية ليست دون الثقافة الغربية قيمة بل قد تفوقها فى ميدان القيم الروحانية • فهؤلاء وأولائك يجيبهم التاريخ مكذبا !

### 3 ــ عبرة التاريخ

ان ما يمكن ان نستنتجه من تاريخ ثقافتنا العربية قد يكون على غاية من الوضوح ان نحن تركنا الاحداث الجزئية ، التى لاتكون الا بمثابة الصور القارة التى نلتقطها على صفحة التاريخ ، وان توغلنا فى هذا التاريخ لنتأمله من الداخل حتى ندرك ونفهم سر تطور هذه الثقافة فى سيرها الديناميكى : فعوض ان نكتفى بانجازاتها المحسوسة ، نحاول النفوذ الى دواليب ذلك **الفكر** الذى خلق تلك الثقافة ، بدلا مما انتجته تلك الدواليب نفسها • فالمهم ــ ان صح هذا التعبير ــ هى تلك « الآلة الفكرية » بدلا مما انتجته طيلة العصور ، والاهم هو ان نطلع على كيفية تركيبها وطبيعة الاجزاء والعناصر التى تألفت منها وكيفية شروعها فى النشاط والحركة ومقادير السرعة التى اكتسبتها عبر العصور •••

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا الفكر العربى لو حاولنا ان نستفسر التاريخ لنتبين الاسباب التى عملت فى تكوينه ونموه لرأيناه يملى علينا آيات كلها مواعظ لمن اراد الاعتبار فهذا التاريخ يجعلنا نرجع بالفكرالعربى عند نشأته الى عنصرى تكوينه وهما البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية اللتين نشأ فيهما : فهى الطبيعة الصحراوية القاسية ، وهو نظام القبيلة الذى تتبخر فيه شخصية الفرد •« فانت اذا نظرت الى اللغة العربية والادب العربى فى ذلك العهد رأيته نتيجة طبيعية لتلك الحياة ، وصورة صادقة لهذه البيئة ، فالفاظ اللغة مثلا فى منتهى السعة والدقة ، اذا كان الشىء الموضوع له اللفظ من ضروريات الحياة فى المعيشة البدوية ، وهى قليلة غير دقيقة فيما ليس كذلك ، فالابل هى عماد الحياة البدوية ، هى خير ماكلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم • فحياة العرب فى الصحراء تكاد تكون مستحيلة لولا فضل الجمل ، من اجل هذا ملئت اللغة العربية بالابل ، فلم يترك العرب صغيرة ولا كبيرة ــ مما يتعلق بها ــ الا ووضعوا لها اللفظ او الالفاظ ، فوضعوا الالفاظ لها ولنتاجها ، ووضعوا

الاسماء لاسنانها (اعمارها) وحلبها ، ورضاعها وفطامها ،٠٠الخ ، ولم يقتصروا على اللفظ الواحد للمسمى الواحد ، بل وضعوا له الاسماء المتعددة ٠ فاذا انت انتقلت من الجمل الى السفينة رايت اللغة العربية فى غاية القصور ، فهم لم يوفوها حقها كما وفوا حق الجمل ، ولم يصفوا اجزاءها ، ولم يضعوا اسماء لكل نوع من انواعها ٠ نعم هناك الفاظ تتعلق بذلك ، ولكنها لاتكاد تذكر اذا قيست بالالفاظ الموضوعة للابل وشؤونها ، بل انك اذا فحصت الالفاظ المستعملة فى السفن ومتعلقاتها وجدت كثيرا منها معربا غير عربى كالسيابجة والبماسرة والانجر وكثير منها لاشك فى انه وضع بعد العصر الجاهلى ٠» (1)

هذا ما يسوقه احمد امين من الامثلة العديدة ، ثم يذكر ، كى يقيم لنا الدليل على صحة هذه الملاحظة ، انه لو تصفحنا كتاب « المخصص » لابن سيدة (وهو معجم جمعت الكلمات فيه حسب المواضيع) لوجدناه يستغرق الكلام فيه عن الابل 176 صفحة فى حين ان السفينة استغرقت منه اقل من سبع صفحات ! وهذا طبيعى لانه لايمكن ان نتصور ان تلك الحياة الصحراوية القاسية بما تفرضه على الافراد والجماعات من سعى مستمر وكفاح متواصل للاحراز على القوت والتأمين على الارواح ، كانت تترك مجالا للعقول لتتخلص من ربقة ارضاء الوظائف الحيوية الاولى فتسمو من عالم المحسوسات الى عالم التأمل والتجريد ٠ وان وجدنا نتفا مبعثرة فى الادب الجاهلى — رغم ما ينبغى ان يكون لنا من احتراز فى الوثوق بصحة تلك الآثار ! — فما هى الا محاولات ضئيلة ، قصيرة النفس مستوحاة كلها من مقتضيات البيئة والمجتمع لاتتعدى فى التعميم والتجريد درجة الحكم المنثورة التى هى اقرب الى الآلية الفكرية منها الى الخلق والابداع والاستنتاج ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا طبيعى بالنسبة الى تلك الحياة البدوية وذاك النظام القبلى : فكانت العقلية ابتدائية يتبعها فكر ابتدائى ٠ وقد يقال ردا على هذا الاستنتاج ان تلك العقلية ، فيما قبل الاسلام بكثير ، قد كانت متأثرة بالحضارات الاجنبية كاليونانية خاصة وبالتيارات الروحانية كالنصرانية واليهودية وغيرها ، ولكنها لم تكن الا تأثيرات طفيفة قصرت على اليمن من دون بقية الجزيرة ، وهى اشبه بالمسحة السطحية التى لم تتفتح لها العقول وما غلبت على الافكار ٠ فكيف يمكنها ان تؤثر فى حياة اولائك البشر وفى حضارتهم ، ان كانت ، وفى ثقافتهم ، ان صح ان وجدت ؟! وما ذاك الدليل الاوحد الذى مافتىء يسوقه بعض من فى قلوبهم مرض من المستشرقين الحاملين على الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية — اشرت الى أمية بن ابى الصلت الذى يقال انه عاش فى اواخر الجاهلية فادرك الاسلام وجاء فى اشعاره بمعظم المعانى التى بسطها القرآن فيما بعد — الا اسطورة كاذبة مكنت الاستاذ كليمنت هوبار

(1) احمد أمين : « فجر الاسلام » (الطبعة الثانية « للجنة التأليف والترجمة والنشر » بمصر) ص : 55

(Clément HUART) من القول بان القرآن قد قلد في معانيه ما جاء في شعر أمية هذا ! ودون ان نحاول الخوض في هذه المشكلة ـ وربما تفرغنا اليها في يوم من الايام لنجلو ماجاء فيها من تهاون بالتاريخ قصد النيل من قيمة الرسالة المحمدية بوازع من سوء نية مثل هؤلاء المستشرقين وتحسبهم الفرص ، وان كانت واهية ، للحط من قيمة الحضارة الاسلامية باطلاق ـ نستخلص من كل ما تقدم انه كلما استفسرنا التاريخ وتأملنا معطياته ، تبينا ان العقلية الجاهلية لم تكن لها قابلية للتطور والتقدم وان تهيأت لها الاسباب الموضوعية (كتأثير الثقافة اليونانية والتيارات الروحانية كالنصرانية واليهودية) التي كان من المنتظر ان تؤثر فيها وتجعلها تتطور وتنمو قبل مجيء الاسلام بقرون ٠ لكنها لم تتطور ، وكأنها قد خالفت ، في ذلك ، مبادىء التاريخ وعلم الاجتماع ٠ فكانها كانت متحجرة وكان ذلك التحجر من خصائصها النوعية ٠٠٠ الى ان جاء الاسلام فكانت الثورة وكان الانقلاب : ثورة في النفوس والعقول وانقلاب تلك العقلية انقلابا جعلها تخرج من قشرها وكانها تنكرت لنفسها فاخذت في استعادة حياتها من جديد ! اهي المعجزة التي لايمكن للتاريخ الا ان يسجلها ويكتفي ام هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الانساني التي يمكن تحليلها ؟

## 4 ـ قوة المثل الاعلى

الحق انه لو تأملنا التاريخ باحثين عن سر تطور الامم بصورة عامة لوجدنا ذلك التطور مقرونا بالمثل العليا التي تشبثت بها في مراحل نموها فخرجت بها من حال الى حال وجعلتها تواصل سيرها في سبيل الرقي والتقدم ٠ فلم يكن ذلك التطور اذن من خصائص المجموعة العربية ، بل هي حادثة طبيعية نجدها في كل مناهج التاريخ وفي حياة كل الامم سواء اكان ذلك بالرجوع الى نموها وازدهارها ام موتها وانهيارها : فهذه الامبراطورية الرومانية تنمو وتتسع بقدر ما كان المثل الاعلى فيها قويا ، ثم هي تتدهور وتضمحل بتدهور ذلك المثل الاعلى واضمحلاله ٠ وهذه فرنسا ، في القرن الثامن عشر ، تقوم بثورة كبرى تجعلها في مقدمة الشعوب الراقية ، بعد ان اتضح ذلك المثل الاعلى الثوروي وتعلقت به كل الآمال ٠ وهذه روسيا تنفض عنها غبار المذلة الذي تراكم عليها طيلة قرون فتتخلص من الدكتاتورية التزارية وتقفز في بضع عقود قفزة لامثيل لها في تاريخ الانسانية فتصبح في مقدمة الامم الراقية وماكان ذلك ليتم لها لولا تعلقها بمثل اعلى قوى المفعول !

اذن لا سبيل الى الرقي والتطور الا اذا وجد **مثل أعلى** تتسامى اليه النفوس وتتعلق به الهمم ! وأزيد على هذا القدر فأقول ان هذا المثل الاعلى لا تكون له فاعلية الا اذا لاءم طبيعة المجموعة الانسانية فصادف منها الجوهر بأكبر مقدار من الجاذبية ، فيكون الانطلاق ويكون تفتح العقلية التي اثر فيها ٠

فهذا ما يجعلنا نفهم كيف تمكن النبى العربى من جمع شتات العرب وتوحيد كلمتهم وجعلهم متكتلين لتكوين أمة واحدة • وهذا ما يفسر لنا انطلاق تلك الامة الفتية ، فى عقود معدودة ، انطلاقا يبعث على الدهشة والاعجاب : فالعنصر الانسانى قد بقى هو هو ، من الجاهلية الى اوائل الاسلام ، الا ان العقلية قد انقلبت او قل قد خلق الاسلام ، فى تلك المجموعة الانسانية ، عقلية جديدة • وهذه هى التى ستمكن الامة الاسلامية الناشئة من القيام بتلك الفتوحات الرهيبة التى جعلت المسلمين يكتسحون العراق فبلاد فارس فالشام ومصر ، ولم يمض قرن على انبثاق الدعوة المحمدية حتى بلغت الامبراطورية الاسلامية اوجها فى العز ، فانتصر المسلمون على البيزنطيين وبلغوا القفقاس والمغرب وصقلية واسبانيا ثم بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة وتشكنت ، الى ان بلغوا حدود الصين بعد ان فتحوا بلاد الهند ! فهاهى قوة المثل الاعلى وما لها من مفعول فى حياة البشر !

ومن اكبر نتائج هذا الفتح تطور العقلية العربية وانقلابها الى عقلية جديدة اتفق المؤرخون على تسميتها بالعقلية الاسلامية لان تلك الفتوحات كان من اثرها ، فى الحياة الاجتماعية ، ان مكنت من امتزاج عناصر انسانية كثيرة ومتباينة فكان هذا الامتزاج « لقاحا بين العقل العربى والعقل الاجنبى انتج بعد قليل من الزمن » (2) تلك هى الاحداث السياسية ومن البديهى ان تكون مصحوبة باحداث فكرية لاتقل خطورة عنها !

فهذه تعاليم الاسلام ، كما نستخلصها من القرآن والحديث ، تدخل فى الاذهان مفاهيم جديدة ترفع العقل العربى من سذاجة الحياة البدوية التى غلبت عليها المحسوسات الى حياة تاملية تزخر بالمبادىء الانسانية والقيم الروحانية السامية وها هو دخول الموالى ، بمالهم من كسب فكرى هو خلاصة حضارات قديمة رسخت لها اقدام فى عالم القيم الانسانية ، يعين على انطلاق الفكر الاسلامى الجديد فتنشأ حركات علمية جديدة لاعهد للعرب بها من قبل : حركة دينية وحركة تاريخية وحركة فلسفية ، الى جانب الحركة الادبية • وهاهى المدارس تشع فى كثير من المراكز والعواصم الاسلامية : مكة والمدينة البصرة والكوفة • الا ان هذه الاسباب التى تجمعت وهذه المعطيات العديدة المتباينة التى عملت فى تكوين الفكر الاسلامى الجديد سوف لاتأتى بنتائجها المنتظرة الا بعد فترة اختمار كان العنصر الدينى فيها هو المهيمن على كل مظاهرها • وستدوم هذه الفترة طيلة العهد الاموى الى ان تنتصب الدولة العباسية فيكون التفاعل اذذاك قد تم بين كل هذه العناصر الثقافية التى اخذت ، منذ بداية الفتح ، تدخل شيئا فشيئا فى هذه العقلية الجديدة ، وكان المثل الاعلى الاسلامى هو العامل على تأليفها وتنسيقها والتوفيق بين اجزائها : فهذه معطيات التيارات الروحانية ، من نصرانية ويهودية ، تلتحم

(2) احمد امين : « فجر الاسلام »

بعناصر الثقافة الهندية والفارسية واليونانية والرومانية ، فيضغط عليها روح الاسلام بعد ان التفت بهـا اللغة العربية ، فينتج عن ذلك ثقافة بـل حضارة ليست هى جملة تلك الاجزاء بل هى تأليف نوعى وخلق جديد • وتلك هى اهم عبرة من عبر تـاريخ الفكر العربى ! لان هذه الحضارة الاسلامية ، وان كانت فى جوهرها تأليفا لعناصر مختلفة ، بما فيهـا العنصر العربى (لانـه لاننسى ان النبى عربى وان القرآن عربى !) فهى فى شكلها عربية صرف • وهذا ما يحاول تجاهله كثير من الباحثين فى تاريخ الحضارة العربية ، وخاصة جماعة من المستشرقين الذين ما فتئوا يرددون انه ان كان العنصر العربى قد فتح ، بالسيف والرمح ، تلك الاقطار العريقة فى الحضارة ، فقد تمكنت هى بدورها ، من فتح العـرب فى الميدان الفكرى : فالفضل اذن كل الفضل ، فى انبثاق تلك الحضارة ، يعود الى تلك الشعوب دون سواها • الا ان ، فى ذلك ، تهاونا بالتاريخ ومعطياته لانه لولا الاسلام ولولا هيمنة العنصر العربى عـلى تلك العناصر المتباينة لما نشأت تلك الحضارة • ويمكنك ان تضيف الدواليب بعضها الى بعض ، وان كانت كثيرة العدد ذات قيمة ، فانك لن تؤلف منها آلة تقوم بوظيفة معينة ان انت لم تؤلف بين تلك الاجزاء والدواليب ولم تـركبها تركيبا • وفى هذا التأليف والتركيب عبقرية لم تكن للفرس ولا للهند ولا لليونـان !

ثم ان تاريخ الفكر العربى لم يكتف بهذه التجربة فحسب بل جاء بثانية ، من نفس النوع ، وكأنه يـريد ان يقيم الدليل عـلى قابلية ذلك الفكر للتطور والخلق والابداع • فها هى التجربة الشرقية تعاد فى الغرب فيقع فتح الاندلس وتشتبك العناصر الانسانية والثقافية المتباينة فينتج عن ذلك تأليف جديد سمى بالحضارة الاندلسية • فان تأملنا هذه الحضارة وجدناهـا تفوق الحضارة الاسبانية المسيحية الموجودة اذ ذاك والحضارة العربية الاموية التى غلبت عليها صفة البداوة •

فهى قوة المثل الاعلى هى التى جعلت بـرابرة طارق بن زيـاد يكتسحون اسبانيا ويمكنون الاسلام منها ! فيمكن فيما بعد لامثال الاستـاذ « بيريس » Pérès ان يطيلوا القول فى ان الفضل فى ذلك يعود الى العنصر الاسبانى بما فيه من يهود ونصارى متهاونين بالصبغة العربية الجوهرية التى كانت لتلك الحضارة •فهو التاريخ قد اعاد نفسه وأقام الدليل على أنه ما لم تبلغه النصرانية باعتمادها على اعظم الامبراطوريات ، قد حققه الاسلام بفضل العنصر العربى!! ودون ان نتوسع فى هذه البحوث ، لان ذلك قد يخرج بنا عن نطاق هذا المقال ويطول ، يمكن ان نستخلص من هذه المعطيات التاريخية ، ان العامل الاول فى تولد الحضارة الاسلامية هى **قـوة المثل** الاعلى الذى جـاءت به الرسالـة المحمدية ، وان العامل الثانى ، هى سرعة تأثر الفكر العربى بذلك المثل الاعلى والوثوب الى الخلق والابداع •

## 5 ـ بين العشية والضحى

-ان من حاول ان يحلل هذا المثل الاعلى وجده ينطوي على ثلاثة عناصر اساسيـة :

**الاول** : هيالرسالة الانسانية الجامعة التي جاء بها محمد يدعوالى « الاعتصام بحبل الله جميعا » والعمل على ما فيه سعادة الدارين • وهذه الدعوة هي التي كانت دعامة الفتوحـات الاسلامية ومـا ادت اليه من اختلاط تلك العنـاصر الانسانية المتباينة ، وكان ذلك على مبدأي الاخـاء والمساواة ، اذ « لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقـوى » : فكانت المملكة الاسلامية وكـانت الحضارة الاسلامية •

**الثاني** : هو ان هذه الحضارة الاسلامية كانت لها ميزات نوعية جعلتها تعتمد الانسان محورا لكل مهامها وتميز في هذا الانسان جوهره الخالص ، اي الفكر ألم يأت القرآن مستهلا بتمجيد العلم « والقلم » : « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » ؟! فها هي اسس الثقافة الاسلامية التي تعلقت جذورها بالقرآن وبالرسالة المحمدية وبالمثل الاعلى الاسلامي !

**الثالث** : ان اللغة العـربية هي لغة القرآن وان هذه اللغـة قد سمت من مستواها الانساني الابتدائي (لنذكر ما كانت عليه في الجاهلية) الى مستوى العالم الرباني !

فها انت ترى كيف ان المثل الاعلى الذي مزق غشاوة الجاهلية جاء جامعا بين الحضارة والثقافة واللغة ! وتتبع هذه العناصر ما شئت ، عبر تاريخ الامـة الاسلامية ، تجدها متماسكة بقدر مـا التأمت حـول مثلها الاعلى ، ومتلاشية منخذلة فاترة بقدر ما اتسعت الشقة بينها وبينه : فهو ضعف الايمان او تدهور المثل الاعلى هو الذي يبين لنا كيف انقسمت الدولة الاسلامية ، في الشرق وفي الغرب ، وضعفت فانهارت•وهو تدهور المثل الاعلىهو الذي جعل الشعوب الاسلامية تسرع فيالتقهقر والانحطاط ، الى اناصبحت لقمة سائغة للمستعمر الاجنبي ، بقدر ما جعلها ، في اول الامر ، تسرع في ميدان الـرقي والتقـدم والازدهـار •

يمكن ان نستنتج اذن ان تارجح الحضارة ، بما يتبعها من ثقافة ، بين الرقي والانحطاط تابع لتموجات المثل الاعلى ، وان من خصائص الفكر العربي المرونة والطواعية لمؤالفة هذه التموجات •

وما السر في انبعاث النهضة العـربية الحديثة الا في انبثاق ذلـك المثل الاعلى التحريري الذي كان السبب في قيام الحركات الوطنية في كامل الاقطار العـربية • وصحة هذا الاستنتاج يمكن ان نلتمسها من واقعنا التونسي كي نتمكن من تمييز الاحداث بوضوح •

من تأمل تطور العقلية التونسية ، خلال تلك الفترة القصيرة التى مرت بها من الحرب العالمية الاخيرة الى سنة 1952 ، لايمكنه أن يفهم سر هذا الانقلاب الا اذا تبين ما للمثل الاعلى الذى اتخذته حركتنا التحريرية وضبطته فى كلمة « **استقلال** » ، من فاعلية فى النفوس والعقول • فهذا المثل الاعلى ، وما اقترن به من رمز للكفاح تجسم فى شخص الزعيم بورقيبة ، هو الذى نفخ فى امتنا ذاك الروح القدسى الذى جعلها تستمد من ضعفها قوة فتصمد أمام الحديد والنار **وتنتصر** فى كل معاركها • وهذا هو المهم : **الانتصار** ! فالتشبث بالمثل الاعلى هو الايمان ! وقوة الايمان لاتفوقها قوة ! وهذا الايمان هو اساس التقدم وقوام كل المهمات السامية التى يقوم بها البشر • وحركتنا التحريرية ، بمالها من مثل اعلى لاتزال قائمة الذات لاننا لم نقطع من الطريق الا نصفها ،أو بعبارة أخرى ، قد خرجنا من الطور الدفاعى الى الطور الانشائى الذى به ، لابسواه ، نتمكن من تحقيق غايتنا المنشودة • الا ان هذا المثل الاعلى قد يكون داخله شيء من الغموض • وهذا الغموض هو الذى يفسر لنا بعض مظاهر التردد والاضطراب ، ان لم نقل الفشل والفتور ، عندما نفكر فيما يجب أن يكون من نهضة اقتصادية وثقافية واجتماعية ، تبعا لنهضتنا السياسية ، فى حين أن الاسباب التى جعلتنا نصمد فى وجه المستعمر ، للتخلص من قيود العبودية ، **مازالت** قائمة الذات : فهى القضاء على التخلف ، فى كل الميادين ، ذاك التخلف الذى كان سببا فى جلب مصيبة الاستعمار لكل الشعوب العربية • لذلك نرى شعبنا ، فى هذه الايام ، يتحفز للقيام بثورة كبرى يكون من شأنها **تحوير العقلية** من جديد وجعل المجموعة تندفع ، بكل ما لها من قوة وعزم ، لتحقيق مثلنا الاعلى وهو **القضاء على التخلف** •

## 6 ـ الى الامـــام !

ان أردنا أن نسرع ، فى هذا الميدان ، بشؤوننا الفكرية والثقافية ، وجب علينا ان نعتبر بالتاريخ • فمن معطياته انه لانجاح ، فى العمل الجماعى دون وجود مثل أعلى • وهذا المثل الاعلى ، بالنسبة الينا والى بقية الشعوب العربية ، له وجهتان متكاملتان : الاولى هى التأمين على كياننا بتعزيز سيادتنا • ولايكون ذلك الا اذا مكنتنا ثقافتنا من الوقوف جنبا لجنب مع بقية الامم الراقية لانه ـ كما قلت فى مقدمة هذا المقال ـ لاتكون السيطرة (وان كنالانريدالسيطرة بل الكرامة والكرامةفحسب ، نريدهالنفوسناكمانريدها لغيرنا ! ) الا لمن مكنته ثقافته من الاحراز على أكبر الوسائل الفنية وادقها • والثانية هى تبرير ساحتنا أمام التاريخ ونفض ما تراكم من غبار المذلة والعار على الجنس العربى والفكر الاسلامى ! لذا وجب ان نوضح السبل وان نحدد المراحل التى يتحتم علينا قطعها فى سبيل نهضتنا الثقافية • وهذا السعى لايكون مثمرا الا اذا اعتبر بدروس التاريخ • ومن دروسه الواضحة :

**أولا :** أن الفكر العربى له من المرونة والقابلية ما يجعله يسرع فى ميدان اكتساب العلوم والسير بها الى الامام ٠

**ثانيا :** أن طبيعة هذا الفكر « لاتظهر ولا يرى ضوؤها الا اذا قدحها قادح » من الثقافات الاجنبيـــة ٠

قد يقول بعضهم ان هذا الفكر العربى قد طال اتصاله واحتكاكه بالثقافات الاجنبية ، فى سنى الاستعمار ، وما مكنــه ذلك من التطور والــرقى ! فأين هى دروس التاريخ ؟؟ والحقيقة أن الاحتكاك بالثقافات الاجنبية لايكفى ان لم يكن عن طيب نفس ومصحوبا بوازع فكرى يمكن الافراد والجماعات لامــن الاقتباس فحسب ، بل من تبنى تلك الثقافــات و « هضمها » وتكييفهـــا بخصائص فكرهم وعبقريتهم كى يتسنى لهم الخلق والابداع ، تحت تاثيــر تلك الثقافات الاجنبية ٠ هذا ما وقع فى العصر العباسى وهذا ما وقع فــى الاندلس : فبعد فترة احتكاك واقتباس ونقــل وقــع « الهضم » ثم الخلــق والابداع ٠ وما كان ذلك ليتم للعرب ، فى تلك العصور ، لو لم يكن لهم مثل أعلى بعثهم على التنافس والمناظرة ٠ فأين هو ذاك المحرك بالنسبة الى من وجد نفسه ، فى العصور الاخيرة ، من ابناء لغة الضاد ، على مقاعد المدرسة الاجنبية دون أن يكون له اختيار فى ذلك ولا ارادة ؟ ! ففى مثل هذه الحالات الانفعالية لايمكن ان نطالب الفكر العربى بالخلق والانتاج اذ الجـو الثقافى برمته قــد تنكر لهذا الفكر الذى اصبح غريبا فى دياره وكانت دياره ديار وحشة !

فعلى هذا الفكر اليوم أن يثأر لنفسه وأن يتجند للزحف على الغرب وعلى كل البلــدان المتقدمة ليأخذ نصيبه من الثقافــة ويتبوأ مكانته فى نطاق الفكــر الانسانى ٠ وهذا الزحف لايتم الا بالايمان والتشبث بمثل اعلى والتخلص من سفاسف المشاكــل الجزئيــة التى يفرضها علينــا الحــاضر وان كــانت تلك المشاكل ، فى بعض الاحيان ، على نصيب من الخطــورة ٠ الا أنه لايقــام لهــا حساب ، ان قيست بمستقبل الامة ٠

لذا وجب تحديد المهمات وتصميم شؤوننا الثقافية على ضياء ما يكون فيــه ضمان للمستقبل٠وحسب ما اعتقد ، لايتم لنا ذلك الا بتوفر هذين السببين ٠

**السبب الاول :** اعطاء المشكل الثقافى اهميته المشروعة فى بلاد غلب عليها الجهل فالفقر ( اذ أن الثــانى لايكــون الا تبعــا لــلاول ) ٠ ولا يتــم ذلك الا بمضاعفة الجهود والتضحيات لتمكيــن كل المواهب من التبلــور والبــروز ، واعتماد مبدا العدالة الاجتماعية فى نشر التعليم وتعميمه والرفع خاصة من مستواه ٠ ثم يجب أن يكون هذا التعليم مسايرا لمقتضيات العصر كافلا لمــا فيه ضمان المستقبل ٠

ولا يكون ذلك الا بتصنيف حاجاتنا الفكرية والاقتصادية والاجتماعيـة وتوجيه شبابنا ، فى تخصصهم واستكمال ثقافتهم ، حسب تلك الحاجات • كما أن هذا التعليم ( وأعنى التعليم الابتدائى والثانـوى ) يجب أن تكـون مهمته اعداد الشبان لخوض المعركة الحقيقية وهى معركة التعليم العالى • لذا وجب أن يكون هدفه الاول السهر على جعل هؤلاء الشبان واثقين من مقومات شخصيتهم ، واجعل فى مقدمة تلك المقومات اللغة العربية •

يكون هذا العمل أول مراحل التجنيـد • أمـا المرحلة الثانية فهى ، كما سبق أن قلت ، الزحف على الغرب وعلى كل الشعوب المتقدمـة فى الميـدان الثقافى ، لتمكين اكبر عدد ممكن مـن الطلبة من مزاولـة تعلمهـم بالخـارج والتزود بأكبر قدر ممكن من الثقافة والتخصص ، قدر الاستطاعة ، فى كل الميادين • وواجب علينا ، فى هذا الباب ، أن نقـوم بكل التضحيـات وأن ننتهز الفرص مهما كانت ، فى باب التعاون الدولى ، لتمكين أكبر عدد ممكن من الشبان من مزاولة تعلمهم بالخارج •

**السبب الثانى** : هو ان النهضة الثقـافية لاتكون ان نحن اكتفينـا بهذا القدر لان هذا المستوى يقف بنا عند حد النقل والاقتباس • لذا وجب بعث جامعة حقيقية واعية بدورها الحيوى الذى عليها أن تقوم به فى هذا المجتمع ، يكون من مهماتها ــ زيادة على ما تقوم به من بث التعليم العالى والسهر عـلى نقل العلوم والفنون من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ــ تمكين كـل المواهب من التفتح بتجاوز طور النقل والاقتباس الى طور الخلق والانتاج سواء أكان ذلك فى العلوم الوضعية أم فى العلوم الانسانية والفنـون • ولا يتم هذا الا اذا توفرت الاسباب المادية والادبيـة لكل من لـه كفـاءة ، وانشاء مراكز للبحوث العلمية تكون وظيفتها تفوق مهمة التعليم وترمى الى احـداث هذه الحركة الثقافية الحقيقية التى بها لا بسواها يمكن لمجتمعنا ان يتقدم فى هذا الميدان •

فالمشكلة تقتضى التطلع الى المستقبل لتحقيق مـا يضمن لنـا تحررنـا الثقافى • لانه ما دامت دواليب جامعتنا يسيطر عليها الاجـانب وما دمنـا لانفكر فى تعويض هؤلاء الاجانب وتمكين المواطنين من الاخذ بأزمة الامر ، فى هذا الميدان ، فانه لن تتم لنا نهضة ثقافية حقيقية لا لايتسنى لنا الخروج من التخلف الذى نقاسيه • وهذا كله يقتضى التثبت والجرأة والاقدام والتضحية • وكيف لانقدم على ذلك كله ان كنا من المؤمنين بالمستقبل ؟؟

### 7 ــ طرح المشاكل الخاطئـة

هذه بعض اشارات سريعة لما قد يبدو من حلول لمشاكلنا الثقافية ، الا انه قبل أن أنهى هذا المقال أريد أن أدفع لومة لائم كأنى به يقول : وما فعلـت باللغة العربية فى كل هذا ؟ وكيف يمكن تأسيس جامعة ومراكـز للبحـوث العلمية ، واللغة العربية قاصرة عن القيام بوظيفتها ؟؟ فالجواب بسيط ، يرجع بنا الى ماجاء فى أول هذا المقال •

وهل يعتقد لائمى أن اللغة العربية كانت ، قبل الدعوة الاسلامية ، متهيئة لقبول كل تلك المعانى القرآنية الجديدة ؟ وهل كانت مستعدة بعد ذلك للقيام بوظيفتها ، ايام الدولة العباسية ، حين انبثقت الحضارة الاسلامية الجديدة وأيام الدولة الاسلامية بالاندلس حين تولدت الحضارة الاندلسية ؟ ؟

الحقيقة أن هذه المشكلة هى من المشاكل الخاطئة ، لان اللغة ليست شرطا من شروط الفكر أى ليس من المعقول أن يقال ان الفكر ( أو قل : الثقافة ) لايمكنه أن يتقدم الا اذا كانت اللغة متقدمة ، لانه لو كان الامر كذلك لتمكنا من التعبير عن كل المفاهيم باطلاق واصبحنا فى مستوى أرقى الشعوب • بل العكس ، فاللغة هى نتيجة من نتائج الفكر وقد قال بعضهم « ان الالفاظ هى ظروف المعانى »الا أن هنالك علاقة جدلية بين الفكر واللغة : فالكلام والفكر ينموان ويرتقيان معا ، وكثرة الالفاظ وتطورها تتبع كثرة المعانى وتطور الفكر • ولئن كانت كل المحاولات التى قام بها علماء العربية ، منذ انبعاث حركة النهضة قد آلت الى الخيبة والفشل فذلك لانهم أهملوا — أو لم ينتبهوا — الى هذه العلاقة الجدلية الموجودة بين اللغة والفكر ، فاخذوا يلتمسون اسباب العلاج للنهوض باللغة ، معتقدين أن فى ذلك مايفى بتطوير الثقافة العربية والفكر العربى • فكانوا كلما قاموا بمحاولاتهم تلك زادت اللغة تحجرا والفكر استعصاء • وهاك دليلا على ذلك ما قام به المجمع العربى بمصر من ضبط « الفاظ الحياة اليومية » ( وهو ابسط مظهر من مظاهر اللغة والفكر معا ! ) ، فقام بذلك العمل الشاق وسهر على تقديمه الى المجمع اللغوى الشهير الشيخ عبد القادر المغربى • فما كان ذلك الا هزلا وعبثا ، لان الناطقين بلغة الضاد لم ترضخ افكارهم وعقولهم لمقررات المجمع العلمى بما فيه الشيخ عبد القادر ! وهذا دليل على أن الشعوب العربية لم تفهم بعد ما هى مهمة المجامع العلمية : فما كانت مهمتها فى أى أمة من الامم أن تخلق الالفاظ وتفرضها فرضا على المجموعة ، بل مهمتها هى تدوين اللغة بما اثبت فيها الاستعمال والتداول من ألفاظ هى وليدة النشاط الفكرى فى كل الميادين • ومن طبيعة هذا النشاط الفكرى ان يخلق المعانى ثم يضع لها الاسماء والالفاظ • لقد قال هاملتون : « لايستولى الجيش على البلاد الا باقامة الحصون فيها ، **والالفاظ هى حصون المعانى** » • ولكن ليست الحصون حصونا ان كانت فارغة ، وما اكثر الحصون الخراب فى البلاد العربية وفى العقول العربية ! واليوم وقد طال خرابها واصبحنا مهددين فى كياننا فما علينا الا ان نشمر وننشط لتشييد حصون جديدة وتجهيزها تجهيزا يساير مقتضيات العصر •

فاللغة العربية ، اذن ، بريئة من كل التهم التى الصقت بها لان الذنب كل الذنب انما هو ذنب الساهرين على شؤوننا الفكرية اذ هم تهاونوا بمستقبل الفكر العربى واغفلوا وسائل علاجه الحقيقى اما عن جهل أو عن تفريط

**الشاذلى الفيتورى**

مبرز فى اللغة والآداب العربية استاذ بدار المعلمين

# دور المثقف على حقيقته في مجتمعنا

بقلم المنجي الشملي



لست من اولئك الذين يعتقدون ان « الثورة الكبرى » اندلعت يوم أن ظفرنا باستقلال بلادنا ! تحديد بداية الانبعاث بهذا التاريخ القريب تضييق في مفهوم الثورة ...

الثورة التونسية الكبرى انطلقت من يوم أن عزم رجال من الشعب مخلصون على استرجاع كرامة الوطن ولانبعد ان قلنا ان مؤتمر قصر هلال سنة 1934 هو بداية الانطلاقة الحقيقية ... وأفاق الشعب ، واشتد الكفاح ، وسقط الشهداء ، وتحقق الاستقلال ، وتحررت البلاد ...

ولعلك لاتجادل في أن طورا جديدا من حياة أمة بفرض قلبا في حياتها من مختلف وجوهها ... أجل ! قد نتغنى بفوزنا ، ونحتفل بنصرنا ، ولكن لاسبيل الى العيش على ذكرى الفوز وشبح النصر ؛ ذلك ان الحرية مرحلة حاسمة ، خلاقة زكية ، ولكنها تبقى صدفة جوفاء ، و « طبلا ضخما » ، أجهر الصوت فاشل الحقيقة ، ان اعتبرناها نهاية المطاف لابدءا للعمل ، الحرية « كالجوز الصحيح » لاتنتفع به حتى تكسره : نريد أن « نكسر الجوز » ... والكسر ثورة ! ثورة سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، عقائدية وثقافية على الخصوص ، لاتجزيئية في انطلاقتنا ! معركة كبرى يجب ان نخوض غمارها جسورين في ايمان ، حذورين في روية .

والمثقف الاصيل له دور هام — ان وعاه — في المجتمع . لست اعني بالمثقف ذلك الذى ساعده الحظ على الاختلاف الى المعاهد والجامعات ، فنال الدرجات العلمية ، فاصبح موظفا في مكتب أنيق أو معلما أو محاميا ... لست أعني بالمثقف هذا الرجل على وجه الحصر ؛ لست أعتقد أن الثقافة وقف على رجال التعليم والمحاماة والطب والهندسة ، انما المثقف — بالمعنى المطلق — هو كل من أتيحت له فرصة شحذ عقله ، وصقل فكره ، وتغذية انسانيته ، وتزكية نفسه بالدرس والقراءة والفهم ، سواء بالمطالعة ومن غير استعانة بأستاذ ،

أو بالاقبال على المعاهد العلمية والاختلاف الى الجامعات · فكيف يمكن أن نفهم دور هذا المثقف ـ على حقيقته ـ فى مجتمعنا هذا المتحفز ، وفى هذه المرحلة التى تجتازها بلادنا ؟ من الناس من ينكر على هذا السؤال فيقول : « دور المثقف من الوضوح بحيث لايحتاج الى تعريف ··· دور المثقف هو أن يقوم بواجباته فى مكتبه ، هو أن يختلف الى المعهد يلقى الدروس على التلامذة ، هو ان يقف مدافعا امام المحاكم ، هو ان يقيم التصميمات لبناء جسر اوعمارة »·· قد لايخلو هذا التحديد لدور المثقف من بعض الصحة ، ولكنه تحديد ضيق لايعدو ان يكون ضبطا ضيقا لمظهر باهت من مظاهر رسالة المثقف ··· قد لايعدو ان يكون تعريفا لدور الموظف ، لا لدور المثقف ، فالعمل اليومى الذى يقوم به المثقف ليس سوى مهنة للارتزاق ، كما يرتزق التاجر والصانع والاسكافى ، والحلاق والبلان ، والخباز والنقلى والفاكهانى ···

فمن وقف عند الارتزاق بعلمه لم يعد ان يكون صاحب « علم رسمى » على حد تعبير أبى حامد الغزالى ، أى رجلا لايتجاوز « المعرفة الشكلية » كما نقول اليوم ؛ **العلم المجرد** اذن لانجاة فيه ولاخلاص به الا اذا اقترن بالعمل·· وعلى أساس هذه المعطيات ، يمكن أن نعرف المثقف ـ فى جوهره ـ بأنه العالم المنتفع بعلمه ، النافع به ، الفاعل فى بيئته ، الدافع عنها ، الحال عن نفسه وعن مجتمه رابطة التقييد ، المكسر لواهى العقائد ، الناظر فى التلقينات العارضة ···

هو افلاس الثقافة والمثقف ان نحن استغنينا عن **العمل** ؛ هى الزينة الخادعة ، وهى الجعجعة الفاشلة ، وهى الاعراض الزائلة ان نحن وقفنا عند العلم المجرد « **فالعلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لايكون** » ···

يمكن ان نفهم مسؤولية المثقف فى المجتمع على هذا النحو ! وهكذا يصبح احجام المثقف عن المشاركة فى بناء المجتمع التونسى الجديد اضعافا لانطلاقتنا، واعراضه عن المشاركة فى بناء المجتمع التونسى الجديد اضعافا لانطلاقتنا ، واعراضه عن حياة الجد صمتا ، والصمت ، فى غير محله ، استسلام ودعوة الى الاستسلام !

ـ ولك أن تسأل قائلا : العلم قد حصل ، فما عساك تدعونى اليه من عمل ! عند المثقف وديعة : **الفكر** · والفكر يفرض على صاحبه أن يكون **رائدا لانائما** ··· ولا يذهبن بك الظن أنى اقصد بالنوم ما يعتريك من غيبوبة فى أوقات نعاسك ، فنم ما طاب لك هذا النوع من النوم ، فهذا شأنك ؛ وانما أقصد بالنوم استرخاء الفكر ، ونظرنا الى الاشياء نظر الراضى بها او الصادف عنها ، ولا أبعد ان قلت انه يخشى ان يكون المثقف اليوم الى النائم أقرب منه الى الرائد ؟ لايمكن ـ ان اردنا الصراحة ـ ان نكون راضين عن انفسنا نحن الذين ننتسب الى الثقافة ! متى هززنا العقول هزا ، وعرفنا سبل العمل تعريفا ، وفتحنا طرق الثورة الاجتماعية فتحا ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكشفنا عن واهى المعتقدات كشفا ، وبعثنا فى العقول نسغا جديدا ••• المحاولات فى هذا الميدان ضئيلة ، محتشمة ان وجدت ، كأن عقولنا قد صدئت ولما نشرع بعد فى العمل ، أو قد اصابها الفند ولاتزال فتية ! نحن لانقترح شيئا بل نترقب ان تقترح السياسة كل شىء ، ان تقدح لنا السياسة الفكرة لنسير على ضوئها !

**المثقف** المضطلع بدوره الحقيقى فى المجتمع **هو الذى يخرج من غيبوبته ليعى الوضع العام على حقيقته فى الوطن** ، فيجرؤ على النظر ، ويجرؤ على الجدال ، ويجرؤ على الحكم ••• ويجرؤ على تحطيم المذاهب الهرمة ، ويجسر على وطء الهياكل المهدمة ، فينشىء على انقاضها مذاهب جديدة تنسجم والحياة الجديدة ، وهياكل يدخلها نور العقل ، وضوء الفكر ، وعبير الانسان •••

الا أن وعى المثقف للوضع الحقيقى فى الوطن ، يكون لاطائل وراءه حتى ينزل المثقف من عليائه **فيعين الجماهير ـ جدى الاعانة ـ على الظفر بهذا الوعى نفسه** ••• فلسنا نؤمن « بجنة المثقفين » ولا « بجنة الادباء » ، المثقف له رسالة لاتكون حقيقة واقعة حتى تتجه الى **افادة أفراد عامة الشعب** والشعب وديع يترقب ، حتى تنفذ الى قلوب عامة الشباب ، والشباب ـ وهو نسغ الامة ، متحفز يترقب : اولئك وهؤلاء يترقبون الرائد المغذى لاذهانهم ، المزكى لانفسهم ، الفاتح أمامهم آفاقا جديدة فى المعرفة والاخلاق والعادات والتفكير •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الساعة ساعة جد : أيحيا التونسى أم يموت ؟ أيحيا هذا الوطن أم يموت ؟ أيشارك فى تطور الحضارة الانسانية أم يرضى باستهلاك ما يقدم له سائغا ؟ ايساهم فى تغذية الثقافة العالمية ، ام يبقى ـ منطويا على نفسه ـ يترقب الاغذية العقلية من الشرق والغرب ؟

ليس الرأى عندى القعود ؛ وليس يسعنا ـ فى الحكمة ـ أن نبقى الوضع الثقافى على ما هو عليه من تفاهة ، وتذبذب ، نبلو أنفسنا باتباع هذا الطريق او ذاك ، فلا نتمسك ، و « نتساقط عن يمين وشمال » ••• لا ! لانريد ان نحمل « زقفونة » ! نريد أن « نعبر الصراط » راجلين لامحمولين ، فى صحو الفكر ، ويقظة الحس ، وايمان بالوصول ، شاعرين بالمسؤولية ، واعين للرسالة •

والشعور بالمسؤولية ليس حياة الدعة ، والوعى للرسالة ليس حياة الترف والميوعة ، تراه فترتاح الى هندامه ، ويعجبك جسمه ، وتهش نفسك لنظاراته الانيقة الحالمة ، واذا قال وددت لو لم يقل ؛ دعوى الثقافة عنده

ملحة ، ولكنها تتبلور ، عنده فى العرضى دون الجوهرى ، هو كمؤدب الجاحظ ! هو كقاضى البصرة : زميت ، ركين ، وقور ... يضبط نفسه ويملك حركته ، لاينطق ، وان نطق فكأنه هاتف ؟ يتصنع الغموض كى يقال « عظيم » ، ويتصنع الصمت كى يقال « حشى علما » ؟ مثله كمثل طالب « علم الفصيح فى الصحيفة الصفراء » .

لا ! الثقافة الحق ليست حسن هندام ولا « درسا لعلم الفصيح »

لا ! ليس لاحد ان يدعى انه **مثقف مثقف** حتى يترك برجه العاجى ، ويفتح قلبه للجماهير ، وتطيب نفسه لاحترام افراد الشعب

اعتقد اذن أن الاتصال بأفراد الشعب ، واعانتهم على الخروج من الجهل ، والبؤس ، والحيرة ، والتعثر فى خضم واهى الآراء ، عنصر اساسى من العناصر المكونة لدور المثقف فى المجتمع

من منادرس المجتمع التونسى وصور حياته وفهم قضاياه اليومية ؟ من منا اهتم بحياة العامل فى واحات الجريد وقابس وعاينه عن كثب يعمل فى موسم التمر او الرمان ؟ فنظر وسال وفهم ثم قص او صور ، من منا ضرب الى مناجم جريصة أو المتلوى وشاهد العملة يكدحون لتحصيل قوتهم اليومى ؟ فنظر وسأل وفهم ثم قص او صور ، من منا أبه لشأن الفلاح يخدم ارضه ، والنساج يعمل على نوله ، والمرأة تنضد القطن على البكر بمردنها أو تغزل بمعزلها ، او تصنع الزربية بثالتها ؟ فنظر وسأل وفهم ثم قص او صور ، من منا تنازل فعاش بين ملاحى المهدية ، وفهم وضع خزافى نابل ، ونقاشى الحجر بدار شعبان ؟ فنظر وسأل وفهم ثم قص أو صور ؟ ... من منا تجاسر على ان يصور معتقدات الناس فى « كرامة الاولياء » ، وما لشعوذة القصاص بساحات الحلفاوين ، وباب السويقة ، والمركاض ، من تزييف للعقائد وتأثير فى عقول العامة ...

المحاولات فى هذا الصدد ضعيفة ضنينة ، لاتتجاوز قصصا قد تطول وقد تقصر ... ولكنها لم تبلور هذه النماذج من حياة الشعب ، ولم تصفها ، ولم تكشف عنها ... ليس لنا من الانتاج ما يؤثر تاثيرا فى مختلف الطبقات ، فيكون كفيلا بان **يحول المجتمع ، ويبدله ويطوره** ، ليس لنا من الانتاج ما يكون **صلة بين المثقف وافراد الشعب** ؛ أين الروايات القصصية التى تصور المجتمع التونسى ؟ اين الروايات المسرحية التى تصور المجتمع التونسى ؟ أين المحاولات النقدية التى تكشف القناع عن الحياة التونسية ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك أنا نعتقد أن تصويرنا لمختلف مظاهر حياتنا فهم لروح مجتمعنا وثورة بالخصوص على ما هرم من مكوناته فاصبح لاينسجم وحياتنا الجديدة ... « **الكلمة** » – بصرك اليه بحقيقتها – سهم نافذ ! بها السحر كامن ، وبها طاقة التطور مخزونة ، فلم لايستعمل المثقفون « الكلمة » سواء مكتوبة أو مقولة فينشأ تجاوب بينهم وبين افراد الشعب ! لننطق ، ولكن لننطق في وضوح ، ولنكتب ، ولكن لنكتب في بساطة حتى يفهم عنا الناس ، ولنكتب في غير رمز ، ولنكتب في غير مجاز ؛ لنكتب للجماهير لا للنخبة ، لان للجماهير علينا حقا اكد من حق النخبة ، لان تطوير تفكير الجماهير هو بالدرجة الاولى من الاهمية ، فالاسلوب المنغلق لايعدو ان يكون ضربا من السفسطة او من الدعوة في الصحراء .

لا ! الثقافة الحق ليست حسن كلام وروعة أسلوب ، ولكنها اجتهاد في العمل قائم على تفكير .

لا ! ليس لاحد ان يدعى أنه **مثقف مثقف** حتى ينزل الى ميدان النضال في سبيل مجتمع أفضل ، سليم العقل ، متحرر فيحيى **الضمائر** ، ويعين ذوى « النوايا الطيبة » على وعى قضايانا ، ويعمل لتحقيق الازدهار الاجتماعي !

فالثقافة وسيلة ! وعبثا نعتقد اننا قمنا بدورنا لمجرد ارتفاع صوتنا في قاعات المحاضرات او ابواق الاذاعة ، اذ الرسالة – على حقيقتها – هي في ان نتجاوز القول الى الفعل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد يكون العمل الاساسى الذى نعتبره نقطة الارتكاز في مساهمة المثقف في الثورة الكبرى هو النشاط في البحث عن الوسائل التي تسهل تعميم التعليم لجميع افراد الامة ؟ فالمواطن الجاهل لايمكن ان يتاثر بجهاد المثقف ولايمكن ان يساهم في بناء الوطن مساهمة ناجعة ؟ على المثقف اذن انلايشمئز من العمل الجدى المتواصل – بجميع الوجوه – كي يعم التعليم جميع الطبقات ؛ فدستورنا صريح في هذا الصدد ، ولا نخشى لومة لائم في المناداة بتطبيق نص من نصوص الدستور الذى كافح شعبنا في سبيله سنين طويلة ، وانا زعيم بان تعميم التعليم لايتحقق الا بتيسير اللغة العربية – لغتنا الوطنية – ، وتيسير اللغة لايكون الا اذا قبلنا فكرة تيسير النحو وتيسير الخط العربى بوضع الحركات على حروفه بصورة قارة (1) ، وانا زعيم بأن

(1) راجع المقال الذى نشر بالفكر ، السنة 5 ، العدد 5 ، فيفرى 1960 بعنوان « من المشاكل العملية التي تعترضنا في استعمال العربية ونشرها »

تعليما يعم ابناء هذا الشعب جميعا ، يقفز بتونس قفزة بعيدة المدى ، ويمكن التونسى شيئا فشيئا من الاضطلاع بمهمات التدريس ، فى جميع الميادين ، والبحث العلمى ، وتشييد البلاد تشييدا قائما علـى السواعد القومية ، ومن تعويض الاجانب اكثر فأكثر ، وهكذا يمكن للمثقف ان يقـوم بدور هـام فى تشييد الوطن فى نطاق الانطلاقة الكبرى ...

وليس ما حاولنا تحديده ــ ايجازا لا استيفاء ــ لدور المثقف بدعا من الامر، فالشعوب لاتتقدم الا بما يكون لها من ثقافـة حية فاعلة ، ومثقفين رائـدين فاعلين ، نافعين ، مناضلين فى سبيل منزلـة افضل للمواطن ، نافخين روحـا جديدة فى ضميره ، وعواطفه ، واخلاقه ، وعاداته وتفكيره

وليس ما اشرنا اليه من مسؤولية المثقف على حقيقتها مما يعز تحقيقه... فتاريخ الانسانية حافل بالامثلة التى تثبت ان المثقفين كانوا فى طليعة التقدم والثورات الانشائية الجذرية ! ولا اذكـر لك الا جملـة يسيرة من الاسمـاء اللامعة ، فى تاريخ البلاد الاسلامية ، من المثقفين حسب التحديد الذى ضبطنا آنفا ــ : اشير الى ابن المقفـع ونضاله لتحقيق الخيـر والصلاح فى المجتمع ، وغيرته على كرامة المثقف فى المجتمع ، واشير الى ابى العلاء المعرى رائد التقدم الاخلاقى والعقائدى والاجتماعى ، وناقد المجتمع نقد المخلص لوطنه وانسانيته، وأشير الى حجة الاسلام وزين الـدين ابى حامـد الغزالى مجرد العقيدة من شعوذة المشعوذين ، والعامل فى تلك الفترة الدقيقة من حياة الامة الاسلامية عمل المؤمن بالمبادىء ، الواعى لرسالة المثقف فى غير ضعف ، وفى غير مداراة، واشير الى زعيم الثورة الدينية والاجتماعية فىعصرالمماليك الشيخ تقى الدين ابن تيمية صاحب الكتاب العظيم فى اهميته ، الصغير فى حجمه ، والمترجمعنه « بالسياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية » ، والمناضل بالقول والعمل فى سبيل نهوض اجتماعى قـائم على تحطيم العقائد الواهية ، وعلى مراعـاة **الاصلح** للامة ، وعلى العدل ، وعلى احترام جميع افراد الشعب باعـانتهم عـلى الخروج من الجهل والفاقة ، واشير الى جمال الدين الافغـانى ، رأس الدعـاة لحركة **التجديد الاسلامى** وباعث التيار المعروف بالوحدة الاسلامية ، والمجاهد لتحرير الاسلام من التأثير الاجنبى ، واشير الى تلميذه وزميلـه محمد عبده المكافح لتحرير التفكير الاسلامى والمجتمع الاسلامى من الجمود الدينى والثقافى والاخلاقى ، واشير الى « السيد » امير على ، واحمد خان بهادر فى الهند ، والى اقبال فى الباكستان ، والى طـه حسين فى مصر ، والى الطاهر الحـداد وابى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القاسم الشابى فى تونس ... هذه اسماء قد دخلت سجل التاريخ اشرنا اليها على سبيل الشاهد .

ولنا نحن المثقفين - فى تونس الجديدة ان نضطلع بدورنا ، اى علينا ان نختار : انشارك فى انطلاقة الوطن فنكون قد اخلصنا لارضنا ولشعبنا ولضمائرنا او لانشارك ، وعند ذلك سوف يجرفنا تيار التاريخ ويدحرجنا ...

ولكن المثقف ، رغم حسن نيته ، واندفاعه ، واخلاصه لايمكن ان يقوم بدوره على حقيقته ، وعلى وجهه الاكمل الا اذا توفرت له اسباب نعتقد انها اساسية فالمثقف التونسى - فى هذه الفترة - هو رجل يقوم بدور رجال عديدين : هو المدرس ، وفى الوقت نفسه هو الكاتب والمحاضر والزعيم السياسى وربما ايضا الموظف فى الادارة ...

وما دام المثقف مشتت القوى ، يجمع بين عديد المسؤوليات ، فلا سبيل الى ان نطالبه بان يضطلع بدوره على حقيقته ، وهنا تبرز مسؤولية الدولة ازاء المثقف ، ان اردنا ان يكون هذا المثقف عنصرا فاعلا فى الثورة الكبرى ، فلابأس من ان يعفى بعض المثقفين من مهماتهم الرسمية كى يقوموا بعمل اجتماعى فعال ...

فنحن نعتقد ان المثقف التونسى - فى الحالة الراهنة - ليس المثقف المنشود بعد ! وليست التبعة عليه لا قليلا ولا كثيرا ، لانه نتيجة بيئة خاصة واسباب موضوعية : بيئة احتكرته للدفاع عن كرامة الوطن قبل الاستقلال ، واحتكرته لتسيير شؤون الدولة ودواليب الادارة بعد الاستقلال ... وهذان سببان جوهريان عاقا المثقف التونسى عن القيام بدوره الحقيقى فى المجتمع ، وكل ما نرجوه هو ان يتمكن المثقف فى وقت نأمل ان يكون قريبا من ان يعمل العمل المفيد للمجتمع ولعامة افراد الشعب ، وعند ذلك يمكن لكل واحد منا ان يقول - معتدا بمساهمته فى الثورة الكبرى - ماقاله الكاتب الفرنسى « جيد » « Gide » فى الصفحة الاخيرة من كتابه الموسوم بـ « تيزى » « Thésée »

**« انى راض عن نفسى ، لانى قمت بما يمليه على الواجب ... انه ليلذلى ان اتصور بان الناس ، بفضل جهودى سيجدون انفسهم اكبر سعادة ، وافضل حالا واكثر حرية ، لخير الانسانية قدمت اعمالى .»**

**المنجى الشملى**

مبرز فى اللغة والآداب العربية .

استاذ بالمعهد العلوى

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

# الثورة الكبرى والتعليم والبحث العلمي

بقلم صالح القرمادي



قبل أن نخوض فى جوهر المشكلة ينبغي الاتفاق على بعض الاوليات ٠

ان انقاذ بلاد من البلـدان المتخلفـة المستعمرة بالفتح من السيطرة والظلم الاستعماريين وتخليصها الى الاستقلال فى جميع الميادين لخليق بأن يسمـى ثورة كبرى فى تاريخ تلك البلاد وما اظن احدا ينازع فى ذلك ولا يمارى

ولكن النزاع يبدو حينما ينتقل المرأ من ميـدان القيام بالثورة الكبرى فى الميدان السياسى الى القيـام بتحقيـق مقتضيـات الثورة الكبرى ومتطلباتها فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالثورة فى الميدان السياسى أى الخروج بالبلاد من عهد الاستعمار السياسى الى عهد الاستقلال السياسى ليست هى المرادة بعينها وفى حد ذاتها اذا لـم نتجز بعدها مقتضياتها الاقتصادية والاجتماعية ٠ والاستقلال التام السياسى ليس هو المراد بعينه وفى حد ذاته اذا لم نتبعه باستقلال اقتصادى واجتماعى

وانما الثورة الكبرى السياسية التى تتجسم أولا فى الاستقلال السياسى يجب أن تعتبر وسيلة لاغير الى تحقيق أهداف أخرى اقتصادية واجتماعيـــة لاغاية تنال ثم يوقف عندها والا فما هى خليقة بأن تسمى ثـورة كبرى ٠٠٠

وقد يظن بهذا الكلام البساطة بل السذاجة والسطحية كما يقال اذ هـو يبدو من البديهيات وأوائل الرأى الا أن التصريح به وابلاغـه الى الشعـب وادخاله فى أدمغة جميع أفراد الامة قد يرفع لبسا مضرا ويدفع طمأنينـــة وتخاملا معرقلين عند من يظن أو كان يظن أن الثورة الكبرى هى الاستقلال السياسى فحسب وأن فى الاستقلال السياسى حلا لجميع مشكـلات البـلاد المتعلقة بمجموع سكان البلاد ٠

كما أن الايمان بمحتوى هذا الكلام الساذج فى ظاهره والاتفاق الجماعـى عليه واستقراره فى رؤوس كافه أفراد الامة يحتم على القائمين بمهام ادارة

هذه الامة ويوجب على المشرفين على مصالحها العمومية أن يعكفوا صباحا مساء على دراسة انجع الوسائل وأسرعها للوصول الى تحقيق مقتضيات الثورة الكبرى وانجاز متطلباتها في ميداني الاقتصاد واصلاح المجتمع .

وما تردد كلمتي الاقتصاد والاجتماع في هذا الحديث الا نتيجة للاهمية الاولى والمرتبة العليا التي يجب أن نعيرها لهذين الميدانين في درجات سلم الضرورات القومية العاجلة .

اذ الغاية الوحيدة التي ينبغي أن تكون نصب أعين القادة والمسيرين بعد تحقيق الثورة في المستوى السياسي هي اتمام الثورة وجعلها « كبرى » في الميدان الاقتصادي بتحقيق اصلاح عقاري عادل وبتصنيع البلاد اصلاحا وتصنيعا تنتج عنهما حتما ثورة اجتماعية تتجسم في تحقيق العدالة الاجتماعية بين جميع افراد هذه الامة وفي محق استغلال الانسان للانسان في البلاد .

واذ كان كذلك فان الواجب الاول الذي يتحتم على القادة والمسيرين لهذه البلاد هو كما قلنا في أول هذا المقال الانعكاف على دراسة الوسائل المؤدية الى تلك الغاية اعني الثورتين الاقتصادية والاجتماعية .

والمتحقق لهذه الوسائل يكتشف لامحالة أن جميعها على اختلاف أجناسها متوقف على شيء ذي بال وأهمية بارزة على شيء خطره عظيم في تاريخ الثورات في جميع بلاد العالم أعني التعليم وتطويره في البلاد .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فكيف يمكن السير في طريق الثورة الاقتصادية والاجتماعية المتحتمتين اذا لم نمكن جميع المواطنين من درجة دنيا من التعلم والثقافة ترتفع بهم عن السوائم والبهائم وتصل بينهم وبين الانسانية ؟ وكيف يعقل أن ينهض بأعباء الثورة الصناعية والفلاحية من لا ثقافة له مهما تكن ضئيلة ولا عقل له قادرا على تفهم أهداف تلك الثورة وغاياتها اذا فسرت له وعلى تبين خطرها بالنسبة الى تغيير مجرى حياته أولا وحياة أمته ثانيا ؟ وهل يمكن للعدالة الاجتماعية أن تتحقق بين جاهل لايفهم من كنه الحياة شيئا وبين مثقف له دراية بحقوقه على الامة ولواجباتها نحوها ؟ وكيف تضمن للمواطنين حقوقهم الدستورية وتفرض عليهم واجباتهم الدستورية وكيف يمكن لهم تحقيق ما تخول لهم الديمقراطية الدستورية من حقوق وتأدية ما تفرضه عليهم من واجبات وقيود اذا عميت بصيرتهم بالجهل واظلامت صدورهم بالغطرسة الناتجة عن الجهل ولم تتكشف لهم منابع المعرفة المنيرة بالتعليم ولم ينهلوا من معين العرفان بالتعلم ؟ لا ! لا أظن عاقلا يماري في هذه الاوليات !

واذا كان التعليم هو اساس الثورتين الاقتصادية والاجتماعية المنشودتين والمكملتين للثورة السياسية تكميلا يجعل من ثلاثتها « ثورة كبرى » بأتم

معنى الكلمة واذا كان التعليم مقوما لهاتين الثورتين من الباطن ومعطيا لهما قوتهما وفاعليتهما ومعناهما فان تطور التعليم فى البلاد وتزكيتـه ونشره وجعله جماعيا عموميا يصبح واجبا وطنيا أوليا وأمانة قومية رئيسية يجب على القادة والمسيرين تأديتهما باخلاص واندفـاع اذ يكون فى الاخلال بهما لا قدر الله اخلال بمقتضيات الثورتين المذكورتين الاساسية فاخلالا بالثورة الكبرى بحكم التبعية ولا يخفى على متبصر ما فى الاخلال بالثورة الكبرى من اخلال بعنصرها الاول اى بالثورة السياسية المتجسمة فى استقلال البـلاد السياسى كما سبقنا ٠

ومعلوم أن المشكله العمليـة الاولى التى اعترضت طريـق المشرفين عـلى تطبيق برنامج نشر التعليم فى بلادنا هى مشكلة الاطارات أى مشكلة تكوين المعلمين تكوينا صالحا يؤهلهم للقيام بهذا الواجب القومى وهذا الدور التاريخ الملقى على عاتقهم فيعلمون الصبيان والاطفال والشبان ويرفعون بذلك الجهالة عن مجموع أفرد الامة والغشاوة التى على أعينهم فيجعلون منهم « مواطنين » ديمقراطيين صالحين للمشاركة بوعى وحماس فى انجاز الثورتين المذكورتيـن وللمساهمة فى تشييد صرح هذه الامة فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخهـا ومعلوم ان مشكلة تكوين الاطارات التعليمية تتفرع الى عدة فروع منها تكوين المعلمين الابتدائيين وتكوين المعلمين الثانويين وتكوين المعلمين الجامعيين ٠٠

وانه ليبدو أن لكل فرع من هذه الفروع مستوى فى الاهمية والاوليـة مخالفـا فى الميدان التطبيقى والعملى لمستوى الآخر ٠ الا ان هذا المستوى واحد بالنسبة الى جميع هذه الفروع فى الميدان النظرى للمفاعلة الديالكتيكية الواضحة بين هذه الفروع التى يغدو تطور أحدها تطور الآخر غذاء ينعكس بدوره على الاول فالثانى وهلم جرا ٠ ويجب أن يكون واحدا فى ميدان التطبيق والعمل ٠

فلئن لم ينكر أحد ما لمشكلة تكوين المعلمين الابتدائيين من خطر وأهميـة فى بلاد اول غاياتها التعليمية هى نشر التعليم الابتدائى نشرا جماعيا فانه ليس هنالك من يمكنه أن ينكر كذلك ما لعلاقة تكوين المعلمين الابتدائيـن وتكوين المعلمين الثانويين من وضوح وخطر اذ تكوين اولائك متوقف عـلى تكوين هؤلاء ٠

كذلك الامر فى العلاقة بين المعلمين الثانويين والمعلمين الجامعيين اذ تكوين الصنف الاول من هؤلاء المعلمين رهين تكوين الصنف الثانى المذكور ٠ واذن فقد بان ان مشكلة تكوين المعلمين وحدها متركبة من اجزاء لئن جاز فصل احدها عن الآخر لمقتضيات عملية اصطناعية فانه لايجوز تفكيكها فى المستوى النظرى

وينتج عن هذا أن الساهر على مصلحة تكوين المعلمين فى هذه البلاد يجب عليه أن يعير تكوين المعلمين الجامعيين من الاهمية والاولية ما يعيره لتكوين الثانويين والابتدائيين ·

واذن يصبح من الواضح أن اعارة الاهمية الاولى · فى ميدان التطبيق الى صنف من أصناف هؤلاء المعلمين واهمال صنف آخر منها اهمالا كليا أو حتى جزئيا لما يبدو فيه من صفة الكمالية وعدم الضرورة يعد اخلالا وتفريطا خطيرين فى مهمة نشر التعليم والثقافة فى البلاد ·

وهنا يجب أن نترك ميدان التفكير المنطقى النظرى والاحتجاج العقلى وان نلقى نظرة على واقعنا التعليمى التونسى لكى نتبين ما هو حظ هذه الاستنتاجات العقلية من التطبيق ·

فأول شيء يجب التصريح به هو أن كتابة الدولة للتربية القومية ومسيريها الحاليين قائمون بمجهود لايجحد فى ميدان نشر التعليم وبسطه على كامل افراد الامة التونسية وتزكيته من ناحية الكيف وذلك باتخاذ برنامج ذى عشر سنوات يقتضى عند نهايتها تحقيق جماعية التعليم وشموله لكافة أطفال الامة وبتطبيق اصلاح التعليم الحالى الذى يرتكز على تطهير التعليم من العناصر الاجنبية عن القومية التونسية وتقويمه تقويما قوميا بقدر المستطاع · وسينبئنا التاريخ بعد مضى ردح من الزمن عن صلاحية هذا البرنامج وهذا الاصلاح وفاعليتهما

وثانى شيء يجب الاعتراف به هو أن هذه العناية المباركة بشؤون التعليم ونشره قد ادت المشرفين عليه الى بذل نشاط لاينكر وقد آخذ بعد فى ايتاء أكله وذلك فى ميدان تكوين المعلمين الابتدائيين والاساتذة الثانويين

وثالث شيء يجب التصريح به فى نفس الوضوح هو أن ناحية تكوين الاساتذة الجامعيين لم يعرها هؤلاء المشرفون الى حد الآن قسطها من الاهمية والعناية على أحسن وجه وأكمله اذا أردنا التسامح بل لم يعيروها حظها من الاهمية والعناية اذا اخترنا التشدد فى الحكم الذى عساه أن يكون أقرب الى الحقيقة الواقعية الماثلة ·

فمن المعلوم أن الجامعة التونسية وهى انجاز من الانجازات المحمودة التى انجبتها الثورة السياسية فى البلاد وسمحت بايجادها هى الآن فى حالة تكون وتشخص

ومن المعلوم أيضا أن هذا الوليد الميمون الذى نشأ وأخذ فى الترعرع شأن كل كائن حى يريد ان يحيا محتاج الى من يعتنى بشؤونه ويسهر عليها من المسيرين الاداريين ومن المسيرين الفكريين أعنى الاساتذة الجامعيين

ولئن كان من المعلوم أن تونسة الصنف الاول من هؤلاء الساهرين على شؤون الجامعة التونسية الوليدة قد تمت وتحققت بفضل الاستقلال السياسى فانه من المعلوم ايضا ان الصنف الثانى منهم وهم الاساتذة يكادون يكون كلهم أجانب غرباء عن البلاد وان جامعتنا الوليدة قائمة الآن قياما كاملا او

يكاد يكون كاملا على عواتق أساتــذة كثرتهــم الكثيرة من الفرنسيين ولسنا نجهل أن ظروفنا الحالية تجعل جامعتنا اليوم فى حاجة ضرورية الى هــؤلاء الاجانب من الاساتذة وأن هذه الحاجة ستبقى ماسة وضرورية مدة ما مــــن الـــــزمن ٠

ولكننا لسنا نجهل كذلك ان هذه المدة من الزمن يتعلق مدى طولها وقصرها بمشيئتنا وافعالنا نحن التونسيين القائمين بأعبــاء تسيير شؤون التعليم وأن هذه المدة من الزمن ستدوم وتطول ما دام وطال فقداننا لاساتذة جامعيين تونسيين لهم من الكفاءة العلمية والجامعية ما يؤهلهم لان يخلفوا زملاءهــم الاجانب فى مهمتهم الثقافية ٠

كما لانجهل أيضا ولا نظن أحدا منا يجهل أن هؤلاء الاساتذة الاجانــب مهما بلغ تفانى بعضهم واخلاصهم لقضية الثقافة ولقضية البلاد التى آوتهــم واغدقت عليهم من اسباب الرفه والتوسع فى الحياة ما اغدقت فان اكثريتهم لايمكن لها ان تقوم بالدور الطبيعى الذى يمكن للاساتذة التونسيين الجامعيين ان وجدوا ان يقوموا به وان تغذى فى الناشئة الطالبية واجيال طلاب الغد روح القومية التونسية وتركز فى نفوسهم شعورهم بقوميتهم الثقافية وذاتيتهم العقلية وشخصيتهم التاريخية ٠

وهنا نريد أن نعلن فى قوة واعتــداد لمــن عساه أن يتهمنــا بالتحامل على زملائنا الاساتذة الجامعيين الاجانب ببلادنا وبغض الطرف عن وجوب التعاون الثقافى وصلاحيته بين مختلف بلدان العالم أن نعلن له أن التعاون الثقافى بتبــادل الاساتذة والطلاب بين البلدان تبادلا مشتركا وبتبادل التجارب الثقافية بينها تبادلا يعود بالفائدة على الجميع شىء وشىء محمود لا ينكر وجوبه وصلاحه ذو عقل وأن احتكار طائفة من الاساتذة الاجانب للتعليم العالى بــل والتعليم الثانوى ولو الى حد ادنى ـ فى بلاد مستقلة وفرض طابع اجنبى فى روحه ومقوماته ومثله العليا على التعليم العالى فى تلك البلاد شىء آخر بــل وشىء يجب ان يعتبر اخف الضررين وان يدوم اقل ما يمكن له ان يــدوم لان فيه مع طول الامد وبعد المدة خطرا عظيما على مستقبل الثقافة فى البلاد ولا أظننى مغاليا اذا قلت وعلى مستقبل استقلالها أيضا ٠

وهنا يمكن للمرء أن يتساءل عن أسباب اهمال المسيرين لدواليب مصالح التعليم لهذه الناحية منه أى لتكوين أساتذة جامعيين تونسيين ٠

فاذا كان هذا الاهمال ناتجا عن تسبيق تكويــن المعلميــن الابتدائييــــن والثانويين فى الاهمية والغاية على تكوين الاساتذة الجامعيين فالجواب ما وضحناه اثناء هذا المقال من خطل تسبيق العناية بأحد فروع التعليم على الآخر ٠
واذا كان هذا الاهمال ناتجا عن ارادة مبيته تقتضى وجوب ابقــاء النخبـــة التونسية من الاساتذة المبرزين وغير المبرزين على الحالة الفكرية المتخلفـــة التى هى عليها الآن والتى أصــدق مــا ينطلق عليهــا من الاسمــاء هو كلمة

Médiocrité (I) الفرنسية التى لاعلم لنا مع الاسف بمرادف لها فى العربية وعن نية باطنة تريد احتكار المعرفة والفوز بها دون الغير أليس يكون فى هذه النيات والارادات الخفية اقتراف لجريمة عقلية ازاء الثورة الثقافية فى البلاد التى رأينا أنها المقوم الاساسى للثورتين الاقتصادية والاجتماعية ؟

أم هل أن هذا الاهمال هو مجرد غفلة ناتجة عن قلة وعى ؟ وفى هذه الحال أفلم يحن وقت النهوض من الغفلة والخروج من عالم قلة الوعى الى دنيا الوعى للحقائق وعيا كاملا ؟

وافلم يحن وقت تهيئة ظروف مواتية مادية ومعنوية للنخبة المفكرة من الاساتذة التونسيين المبرزين وغير المبرزين الذين يتطوعون لذلك لكى يتمكنوا من الشروع فى البحث العلمى ؟

وافلم يحن وقت ارسال من تطوع منهم بعد انتقاء واختيار يمكن ان يكونا بطريقة المسابقة والمناظرة الى البلاد الاوروبية وانفاق جزء ضئيل جدا من مالية كتابة الدولة للتربية القومية عليهم لكى يتمكنوا من الاختلاف الى مناهل المعرفة الحديثة والانعكاف على تحضير الاعمال العلمية فى راحة واطمئنان ومراع بال مادى ومعنوى ؟

وافلم يحن اعفاء النخبة المتثقفة ثقافة ممتازة ـ وعددها قليل ـ المتطوعة للبحث العلمى من اعباء التعليم الثانوى وحتى الجامعى الذى يثقل كاهلهم ويصرفهم عن امكانيات العمل واخلاء الجو بينهم وبين العمل بجد وحماس فى ميدان البحث العلمى الخلاق سواء فى ميدان العلوم أم فى ميدان الآداب حتى يتمكنوا من تكوين الخلية الاولى من الاساتذة الجامعيين التونسيين الحاملين لشهادة الدكتوراه ويتمكنوا بعد زمن قصير من أن يخلفوا زملاءهم الاجانب ومن أن يقوموا بدورهم العظيم فى تقويم نفوس طلابهم أى فى تقويم نفوس أساتذة المستقبل الثانويين تقويما قوميا تونسيا صرفا ينعكس بعد مراحل فى نفوس الاطفال التونسيين من طريق المعلمين الابتدائيين الذى سيلقنونهم غدا أول أسرار المعرفة ؟

وما هو الدافع يا ترى الى عدم انجاز ما ندعو اليه ؟ أهى مشاكل عقلية تكون من اشد المشغوفين بالاطلاع عليها ؟ ام هل هى مجرد مشاكل بعض المئات من الدنانير ؟ واذا كان الامر كذلك فالاولى أن نكتفى بالصمت عن الاجابة لان موضوعا خطيرا كهذا الموضوع يتوقف عليه مستقبل الثقافة فى البلاد بل ومصير الثورة الكبرى لايمكن بحال أن نقيم فيه لهذه الاعتبارات وزنا .

---

(I) يطلق الفرنسيون لفظ Médiocrité على كل شىء تأرجح بين ما هو متوسط فى القيمة وما هو دون المتوسط فيها .

**صالح القرمادى**
استاذ اللغة والآداب العربية
بالجامعة التونسية

# الثورة الكبرى
# والتخلف الاجتماعي والاقتصادي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# النهضة الاجتماعية وتحديد النسل

بقلم فتحية مزالي



ان سرعة النمو الديموغرافى ظاهرة من ظواهر التخلف فحيث ينحط مستوى العيش وتقل الموارد يلاحظ تزايد مطرد فى عدد السكان ومن هنا فرضت مشكلة **تكاثر السكان** نفسها على المسؤولين واخذ البعض يفكرون فى تحديد النسل للتخفيف من وطأة التخلف وملاءمة الانتاج مع نسبة المستهلكين وقداصبحت عبارة (برث كنترول) الانقليزية كثيرة الاستعمال فى اوساط رجال السياسة والاقتصاد ومستعملة كما هى فى لغات اخرى كثيرة اما معناها فهو مراقبة النشوء او تحديد النسل

وقد استعمل البشر منذ القدم وسائل شتى ومختلفة لتحديد عدد الولادات ولاتظن انى سأذكرها كلها فى هذا المقال ، يكفينى ان اذكر بان نمو الجنين يقتضى تسعة اشهر وانه يمكن تعطيله من اول يوم الى آخر يوم قبل الولادة واذا بلغ هذا الجنين سنا ما فان اسقاطه يسمى **(اجهاضا)** وهذه الكلمة كما تعلمون لاتستسيغها الاذن بسهولة

وهناك وسائل اخرى تخلق ظروفا يصعب معها تكون الجنين كما توجد اساليب طبيعية تعتمد على تمييز الفترة الخصبة من الفترة غير الخصبة بالنسبة للمرأة وفى الظاهر فان هذه الاساليب تخضع لقوانين الطبيعة الا انها تكفر بأخرى وتعرف بطريقة (أوجينو)

وليس الغرض من هذا المقال ان نختار بين هذا الاسلوب او غيره من اساليب تحديد النسل بل علينا قبل كل شيء ان نتساءل : هل نوافق ام نعارض تحديد النسل ؟

يقول « الفريد سوفى » Alfred Sauvy ازاء هذا السؤال نجد معسكرين ففى المعسكر (المتشائم) يوجد الاشخاص ذوو المزاج (البخيل) وهو معسكر (مالتوس) Malthus الذى يريد التنقيص منعدد الولادات ، اما فىالمعسكر (المتفائل) فنجد الاشخاص ذوى الطبع الكريم ان جميعهم قد يرومون الخير لغيرهم – لنطمئن من هذه الناحية – الا ان كل واحد منهم ينظر الى الخير من زاويته هو ٠

واذا لم تقع مناقشة هذه المشكلة بحماس فى البلاد التونسية من قبل فقد وقع ذلك فى بلدان اخرى وبلغتنا اصداء النظريات المؤيدة وعكسها ٠ هل من الواجب الامساك فى بعض الاحيان عن الايلاد ؟ هذا سؤال يهم كل شخص مباشرة فبعضهم لايتردد اذ توجد لديه وسائل لمنع تكون الجنين ولكن الندم يعذب فيما بعد ضميره من حين لآخر وتوجد شخصيات لهم قيمتهم تتطوع للزيادة من وطأة عذاب الضمير ٠ ذلك ان الحيلولة دون الايلاد معناه رفض منح الحياة لكائن بشرى قد يكون ممتازا واذا رفضت منح الحياة أليس معنى ذلك انك شخص غير سوى لايقدر فرحة الحياة حق قدرها ولايعرف كيف يحمد الله على ما انعم به علينا فأنت فى هذه الصورة انانى وانت بخيل تجمع ثمرات عملك لمجرد الجمع والادخار وانت ايضا وحش اذ تسلك سلوكا يعارض قوانين الطبيعة البشرية وعملك مناف للاخلاق اذ تقبل اللذة وترفض الجهد والكد ، انت مواطن ردىء اذ تستغل مجهودات من سبقك فى المجتمع وتضحياتهم وتأبى العمل من اجل الديمومة الاجتماعية ، انت مجرم لانك تقتل جنينا فى حالة نمو حيا يرزق ولانك تسلب الحياة بعد ان وهبتهاعن قصد او عن غير قصد

ان هذا الشخص الذى لايريد ان ينجب اولادا يكبله ضميره وقد تثار الطبيعة نفسها عاجلا اذ كثيرا ما يسبب الاجهاض موت الام فيقال : هذا عقاب الله او عقاب الطبيعة ، حسب معتقدات الناس

واذا حدثت وفاة تعقدت المشكلة اذ هى تتجاوز ضمير الفرد وطمأنينته ويضطر المجتمع الى الاقتصاص من المسؤولين وفى هذه الصورة فان الجناية مضبوطة وكذلك الحكم ٠

وقد يعترى المجتمع القلق عندما تدل الاحصائيات الخاصة بعدد السكان ان نسبة الولادات ليست فى ازدياد او هى فى انخفاض وحينئذ تدرك الحكومة المسؤولة الخطر الذى يهدد البلاد فى حيويته وهو اصابة العمران بالشيخوخة ٠

والاحسن عند النظر فى أمر الديمغرافية الاعتماد دائما على الاحصائيات الا ان الارقام تأتى دائما بعد التجربة وقد تعلمنا الملاحظة الشىء الكثير ٠ ان مشاكل العمران لم تكن لتجلب اهتمامى الى ان شعرت بشىء من الحرج عند رؤية بعض الديار الفرنسية حيث لايسكن الا امرأة عجوز تقتات باليسير من

المأكل وتتصاغر من يوم ليوم لتترك المجال الى أثاث قـديم ضخم يتداعى تحت الاغلفة انها تتنهد وتجد صعوبة للصبر على قبول طالب يحتل دارها واني ارى اليوم في هذه الصورة التضاد بـين العادات الجامدة اليابسة وبـين النشاط المتجدد ، هي صورة البلاد التي شاخ سكانها ، هي صورة البلاد العجوز ٠

وان أسباب هذه الشيخوخة معروفة فبقدر ما يطيل الشباب عزوبتهم بقدر ما تتأخر ولادة ابنائهم الاول عندما يتزوجون ، وبقدر ما يقللون منعدد اولادهم بقدر ما يشيخ السكان وتصبح البلاد مهددة في حياتها عندما لاتجدد الاجيال وعوض ان تدرس الاسباب المباشرة فقد ساد الاعتقاد زمنا طويلا في ان كل مدنية تمر حتما بمراحل ثـلاث : النمو ، الاوج ، الهرم ٠ اما اليوم فـانه لابـد من دراسة الحوادث الاجتماعية دراسة علمية

فاذا شاخت بلاد تعذر عليها التقدم واصيبت بداء التأخر من جـراء تأثير نتائج هذه الشيخوخة في بعضها بعضا ، ذلك ان عدم وجود مشاكل جديدة يستتبع فقدان الحلول الخطيرة التي تضمن التقدم بالنسبة للحلول القـديمة فالشيوخ يرومون دائما قضاء بقية العمر في ديـارهم العتيقة وبالعكس فان الحاجات الجديدة تحفز الى النشاط الخلاق

واذا استيقظت الامة واستاءت من حالتها كانت الرجة العنيفة وكان الفزع وانكبت الحكومة والاحزاب والمنظمات والمثقفون والاطباء انكبوا جميعهم عـلى الداء لمعرفة اسبابه واقتراح الحلول ٠ حينئذ يشيد القوم بالامومة وبروعتهـا (اذكر صورة العذراء تحمل ابنها في البلـدان الكاثوليكية) ويقررون المنـح ويقيمون اعيـاد الامهات ويعينون الآباء والامهات عـلى القيام بشؤون اولادهم ويبنون دور الاستجمام للعائلات الكثيرة العدد ويقاومون الافراط في التبرج وينعتون الولادة بأنها حدث سعيد ولاتتجاسر الاحزاب على الدفـاع عن الفرد وحريته ويبحثون عن وسائل حماية الامهات والاطفـال وينظمون المسابقات لاختياراجملطفلويكافؤون العائلات الكبيرة وتتخذ الحكومات اجراءات صارمة لمنع انتشار الوسائلالمستعملة للحيلولة دونتكونالجنين ولمقاومة الاجهاضمن ذلك ان الحكومة الفرنسية اعتبرته سنة 1941 جريمة ضد امن الدولة ٠

وقد لاحظت باستغراب عندما حللت بباريس سنة 1947 قلة عـدد النساء الحاملات امـا في تونس فعندما اردت صحبة زميـلاتي المسؤولات عن الاتحاد القـومي النسائي التونسي اعطاء الاولوية اثنـاء الانتخابات التشريعية التي جرت يوم 8 نوفمبر 1959 للنساء الحاملات والى اللائي كن يحملن اطفالهن وذلك لكي يقمن بواجبهن الانتخابي سريعا ما عدلنا لانهن كن الاغلبية الساحقة ٠ وفي سنة 1950 عبرت لي فـرنسية عما كانت تشعر بـه من حـرج منذ ان حلت بتونس اذ كلما زارها زائر سألها : هل انت حامل ؟ وقالت ان الـزوج عندنا يعبر عن لياقته ازاء زوجته عندما يجنبها الحمـل في السنـة الاولى من الزواج اما هنا فاننا نخشى الطلاق في هذه الحالة اذ قد تتهم الزوجة بالعقم ٠

هناك اذن موقفان متقابلان ولابد من مقاومة احدهما وهناك نتيجة اخرى ايضا وهى ان الفرد لايحيا دائما حياته بل انه يحيا معتقداته

الا ان مسألة عدد الاولاد لايهم فقط الاباء والتوازن العائلى انها مسألة قومية اولا وبالذات

وبما اننى استشهدت بالفرنسيين فيجب الا ننسى ان الاحصائيات تدل ان فرنسا هى البلاد الاولى التى سجل فيها نقصان فى الولادات ولكنها بعد الحرب تداركت امرها بوسائل كثيرة وكانت النتيجة ايجابية وبينما تستقر الامور فى الولايات المتحدة واوروبا فى القرن العشرين ويتيسر وضع حد لتزايد السكان اذا بالرأى العام العالمى تلفت انظاره الى الموجة العارمة الصاعدة من شعوب افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية مما سيجىء الحديث عنه من بعد

والى جانب ذلك لايزال الحبر سائلا فى قضية تحديد النسل وبينما تصر الكنيسة على تحريم وسائل الاجهاض وتكون الجنين يدافع العقليون والوجوديون عن حرية الفرد وتعلن الجمعيات النسائية عن عزمها على تحرير المرأة فقد ثارت الكاتبة سيمون دى بوفوار فى كتابها (الجنس الثانى) على عبودية المرأة منذ غابر القرون وختمت بقولها : ان اول مظهر من مظاهر عدم المساواة بين الرجال والنساء هو ان المرأة تلد ومن ثم فان الرجال هم الذين كتبوا تاريخ النساء ، ويجدر بالملاحظة ان بعض الكتاب حددوا فى رواياتهم التنبئية منزلة المرأة فى عالم الغد الذى يكون قد شمله التقدم فقد تخيل الكاتب « الدوس هكسلى » فى كتابه (خير العوالم) عالما يكون الكائن البشرى قد تحرر فيه مما يعوقه الآن مصورا بذلك ابعد ما ذهب اليه امل العلماء والفلاسفة • وفيما يخص المشكلة التى تهمنا فقد حرر « الدوس هكسلى » المرأة من عبء الحمل فالحل يسير : توضع النطف فى أوان توفرت فيها الشروط الكيميائية ثم تتحقق تربية الاطفال بواسطة اخصائيين حسب برامج مضبوطة وبطرائق فنية حسية مدققة • لقد كان تفكير « الدوس هكسلى » تفكيرا غربيا اذ كان همه مستقبل المدنية الغربية • قد يكون هذا الكاتب سافر منذ تاريخ ظهور كتابه وقد يكون درس المسألة الديموغرافية الا ان الجدير بالملاحظة هو انه اعاد النظر فى كتابه وألف كتابا جديدا تحت عنوان (رجوع الى خير العوالم) وذلك بعد مضى 27 سنة وقد ايد ذلك بقوله : ان العهد الذى تقبل عليه الجماهير البشرية ليس هو عهد الفضاء الكونى وانما هو عهد تزايد السكان بافراط فقد كانت البشرية تعد سنة 1931 اى فى تاريخ (خير العوالم) مليارين من الافراد بينما هى تعد اليوم مليارين وثمانمائة مليون وهكذا يجد خير العوالم نفسه مهددا بثافة الجوع التى ستكون سببا فى انهيار القيم التى يتشبث بها العالم المسمى بالحر ويرى هكسلى ان المستقبل سوف يسفر عن عالم منقوص جائع يرزح تحت كلاكل دكتاتورية لاترحم •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا يؤول بنا النظر فى مشكلة السكان الى اعتبار الامور الاقتصادية ويمكن القول بان الاختصاصيين فى الاقتصاد عندما يدرسون برامج النمو بالاستناد الى الارقام تجابههم دائما المشكلة الديموغرافية فى القرن العشرين ولقائل ان يقول ان الارض وفرت الاكل لجميع السكان منذ اقدم العصور ويوجد الى اليوم مساحات شاسعة لم يقع استغلالها فأين المشكلة ؟ يحاول (الفريد سوفى) ان يفسر لنا ذلك فى كتابه (من مالطوس الى ماوتسى تونغ) الصادر سنة 1958 بقوله ان البشرية الى عهد غير بعيد كانت دائما تصاب من حين لآخر بمصائب عظمى معروفة كالحرب والاوبئة والمجاعة وقد تجتمع هذه المصائب كلها فتحدث خسارة عظيمة وتوحى بان طريق مقاومة الموت لاتزال طويلة اما اليوم فانالحرب بالرغم عنكونها لاتزال فتاكة الاانها لاتقع بتقابل الجيشين كما كانت من قبل وتقدم الطب تغلب على الاوبئة ولم يعد للمجاعة اثرها القديم واصبحت التغذية غير الكافية ظاهرة هذا القرن فان الشخص الضعيف البنية نتيجة قلة التغذية ليس بالضرورة ضحية الجراثيم اذ يمكنه مقاومتها ببعض الادوية ولم يعد لهذه الجراثيم تأثير كبير الا على الاطفال ففى سنة 1950 كانت نسبة وفيات الاطفال بتونس 310 فى الالف اما فى فرنسا فقد كانت النسبة 47 فى الالف وفى سنة 1958 اصبحت هذه النسبة 183 فى الالف بتونس و 30 فى الالف بفرنسا .

فتقدم الطب يساعد اذن على ازدياد السكان سواء كان ذلك فى بلاد متخلفة او فى بلاد متقدمة وان نسبة الزيادة تعظم بمقدار ازدياد نسبة الولادات وهكذا يزداد السكان فى البلاد المتخلفة التى لاتحدد الولادات بسرعة اكثر من السرعة التى يزداد بها السكان فى بلاد متقدمة وتعظم نسبة الولادات ايضا فى البلدان التى يتزوج فيها الفتيات فى سن مبكرة . ويجب ان نلاحظ ايضا ان هيئات عالمية تسعى الى اهداف بشرية وتعد البرامج الكبيرة لرفع مستوى السكان اضطرت الى اعتبار الناحية الاقتصادية والى النظر فىتطورالفلاحة والى استغلال الاراضى البور لكناذا كان التقدم فى الميدان الطبى ملموسا فانالنمو الاقتصادى بطيء ولاتظهر نتائجه بسرعة بينما ازدياد السكان فى استمرار ، لذا لانكاد نجد فى ميزانيات العائلات التونسية ان كانت لها ميزانيات مجالا لغير مصاريف التغذية بينما تحتاج البلاد الساعية الى النهوض الاقتصادى الى رصد الاموال وبقدر ما يتزايد السكان بقدر ما تزداد ضرورة رصد رؤوس الاموال تأكدا فى جميع الميادين : الفلاحة ، الصناعة ، التربية ، تكوين الاطارات ، ونظرا الى ضعف موارد سكان البلاد المتخلفة واذا وجب ان تعتمد على نفسها فان الحل لايمكن ان يكون الا بالعمل على التنقيص من سرعة ازدياد السكان فى حالة العجز على الزيادة فى سرعة الموارد .

ان هذه النتيجة تأباها بعض المذاهب وقد تجاهلها العالم الشيوعي مدة طويلة اذ خشية ازدياد السكان معناها انهزام الانسان او عجز نظام ما وقد يقال انه نتيجة توزيع غير عادل للثروة القومية بينما يجب ان يسخر التقدم العلمي في خدمة النظام العادل الموصل الى عهد الازدهار والرفاهية بالنسبة للبشرية جمعاء وقد لاحظ انصار تلك المذاهب انه وقع حرق كميات كبيرة من القمح والقهوة اجتنابا لانخفاض الاسعار بينما كان الواجب يقضي بان يتمتع بها المعوزون وهكذا تصبح المسألة مجالا للمناقشة بين اصحاب النزعتين •

ان البلاد التي تخلصت من الاستعمار والتي لاتزال متخلفة اقتصاديا تعمل اليوم بقيادة زعمائها في جميع الواجهات بشجاعة وبطولة لمواجهة وضعية متدهورة وان اليابان هو اول بلاد بالنسبة للعالم الشرقي ساعدت على تحديد الولادات في نفس الوقت الذي حققت فيه تقدما سريعا في ميدان الصناعة ويجب الا ننسى في هذا الصدد ان تقدم الصناعة هو الذي يمهد الى نمو الفلاحة • فقد بلغت نسبة الولادات في اليابان سنة 1957 نسبة الولادات في فرنسا بل قد نزلت دونها وكذلك مثل الصين الشعبية الجديد بالاعتبار ، فبالرغم عن احترازات بعض الشيوعيين المتذهبين في البداية انتشرت وسائل الاجهاض انتشارا كبيرا وصدر في مارس 1957 قانون يمنح حرية الاجهاض واستعمال وسائل التعقيم بالنسبة للجنسين وقد رايت بنفسي في جناح الصين بمعرض تونس في شهر اكتوبر الاخير بعض الادوية لهذا الغرض معروضة كما انه وقع الرفع من سن الزواج الى 18 بالنسبة للفتيات و 20 بالنسبة للفتيان وقد لعبت في هذا المضمار الجامعة الديموقراطية للنساء الصينيات دورا كبيرا وهيآت الراي العام الى ذلك • اما عن نتائج هذه الاجراءات فان الحسابات لاتعطينا الا نسبا وقوانين عامة واذن فمن العسير التأثير في الميدان الاجتماعي بكل دقة وضبط واذا ما انطلقت الحركة الاجتماعية من العسير التنبؤ بالحد الذي ستقف عنده ومن العسير كذلك توجيهها بدقة او ايقافها حيث ارادة الانسان •••

❀ ❀ ❀

فيما سبق لم اتعرض كثيرا الى تونس مباشرة الا ان الملاحظات الواردة في القسم الاول من هذا البحث تعيننا على تبين الطريق الواجب اتباعه •

ان البلاد التونسية تعتبر من بين البلدان المتخلفة الماسكة زمام امرها بنفسها وهي نسبيا بلاد صغيرة من حيث مساحتها وعدد سكانها وثروتها الطبيعية متوسطة • انها ايضا بلاد فتية اذ نصف سكانها لم يبلغوا عشرين سنة من العمر مع العلم ان 32 من بين 100 مولود جديد يموتون قبل بلوغ السنة الاولى و 20 يموتون قبل بلوغ 19 سنة ومعنى ذلك انه في سنة 1950 ــ 52 في المائة لم يبلغوا سن العشرين • ان هذا الشباب مهدد الا ان كثرة الولادات تضمن دائما تعويض الهالكين ويكفي للتأكد من ذلك ان ينظر المرء حوله •

واذا نظرنا الى المرأة التونسية وجدناها كثيرا ما تشكو وتئن وربما طاب لها ذلك • ان مشاكل كثيرة تعترضهـا طبعا ويدفعها الحياء الى التظاهر بالابتسام والمرأة الصريحة تقول لك انلىعدد كذا منالاولاد واترقب مولودا آخرفاذا قلت لها : ماذا تترقبين لانهاء ذلك اجابت اعتقد انه المولود الاخير • ويتجدد الحوار في السنة ألموالية وقد تفر المرأة من عناء الجواب قائلة تلك ارادة الله ، انـه القدر • ولكن هذه المرأة تسعى دائما في الحقيقة لاجتناب الحمل وتتفضل احيانا عجوز باقتراح بعضالوسائل وهي تستر خبثها واقولتستر خبثها لانى رأيت الابتسامة تضىء وجه امثال هـاته العجوز عندما تعلم ان العروس حـامل منذ الاسابيـع الاولى بعد الزواج • ان هذه العروس منذ ان حملت دخلت جيش النساء المتعذبات • لم تمض أسابيع على زواجها واذا بها تنفذ حكـم القدر • ويسليها القوم عندما يرثون لحال العائلة المحرومة من الاطفال ويشفقون عليها ايضا في نفس الوقت الذى يهنؤونها فيه بالحدث السعيد ويعلمونها التجلد ، لقد انتهى عهد الشباب • يجب ان تقرأ حسابا للاشخاص (المحترمين) الذين هم حولها ويجب عليهـا ان تتكلم وان تعترف وان تنتصح ، لقـد انتهى عهد الحياء ايضا • وكذلك طبيبها المتأثر بالقانونالفرنسى فهو الحيطة نفسها والحذر بالذات : عليها اذن ان تعول على نفسها اما ميزانية العائلة المتوازنة بعد عناء كبير فانها يجب ان تبقى متوازنة ايضا بالنسبة لثلاثة اشخاص ثم لخمسة ثـم لستة ثم لعشرة وربمالـ I2 واليوم ايضا بساعاته المحدودة يجب ان يكـون كافيا للقيام بشؤون العائلة كلها على تزايد اعضائها الا ان طيبة القلب وربما خشية سوء العاقبة تمنعان ربة المنزل من الوقوف عند هاته الاعتبارات الانانية واذا بها تشمر على ساعد الكد وكثيرا ما تعجز عن ذلك ويقسو القدر فاذا هى حامل من جديد وعـوض ان تنتظر من الزوج اعانة ما تـدفعه الى البحث عن شغـل يوفر مداخيل كافية •

تلك هى الوضعية من الناحية العائلية وصعوباتها المادية • الا انه عندما يكبر الاولاد يشعر الاباء بصعوبات التربية وكم من بينهم يهربـون من مسؤوليتهم فتعتمد الام على صرامة الاب الذى كثيرا ما يعتبر غريبا عن المنزل مهمته فرض النظام ولو فى الظاهر • واعتبارا بذلك تقسم الام انها لن تزوج ابنتها فى سن مبكرة حتى لاتقاسى كثرة الاولاد وتقسم ايضا انها ستثقفهـا حتى تقدر عـلى السيطرة على الموقف فى العائلة وتقسم انها ستهيؤها كى تقـدر على القيـام بوظيفة أو بشغل ما فيتيسر لها ان تتحرر • وقد لاحظت ان بعض الاوساط تعرف كيف تجتنب الحملولاحظت ان اخواتها فى تلك الاوساط يتمتعن بقدر كبير من الحرية وان لهن شخصية وانهن لايرزحن تحت عبء عـدد الاطفـال المتكاثر وان لهن من الحيل والوسائل ما يتمكن به من الافلات من عبودية المادة وان رؤية طفلين او ثلاثة يتجولون لابسين ثيابا نظيفة ومتمتعين بصحة جيدة ومشمولين بالعطف والتقدير لمن شأنه ان يفتح الافق حيث عـالم جديد وقيم محببة الى النفس محترمة •

ARCHIVE

وهناك اشخاص كثيرون يؤثرون ازدياد عدد التونسيين بسرعة ملاحظين ان 4 ملايين عدد ضئيل بالنسبة للامم الاخرى والجواب المعروف هو ان الاولوية يجب ان تكون للكيف لا للكم وان البلاد التي تروم الخروج من التخلف في حاجة الى اطارات اي اشخاص مكونين تكوينا صحيحا وقادرين على مسك زمام مستقبل البلاد بايديهم ٠

وبعضهم يلاحظ ان نسبة وفيات الاطفال كبيرة واذن فلا موجب لتحديد الولادات والجواب هو انه بالرغم عن خطورة هذه النسبة فان سرعة ازدياد عدد السكان بتونس كبيرة جدا

وان هذا الحل الذي نسميه حلا ديموغرافيا سوف ييسر النمو الاقتصادي والنمو الاقتصادي من شانه ان يقلل من نسبة وفيات الاطفال ٠ حذار اذن من الوقوع في هذه الدائرة المفرغة ٠

ومن الناس من يؤثرون التفكير المطلق ولايقبلون بحال استعمال الوسائل الكفيلة بتحديد النسل لكن اذا كانت مصلحة المجتمع وتوازن العائلات يقضي بتحديد النسل واذا وفرت قلة الاطفال في العائلة الواحدة المجال للام كي تعتني اعتناء اكمل بأولادها وتستعد لذلك الاستعداد المطلوب ماهو المبدأ الذي يستند عليه القوم ليخشوا تحديد الولادات ؟ ان الخطر الوحيد هو شيخوخة الامة المهددة بالانقراض ومن واجب العالم الديموغرافي في هذا المقام أن يمدنا بتدقيقات اكثرفي شأن ظواهر العمران وربما امدتنا احصائيات 1960 بمعطيات جديدة ولا بأس أن يدرس الشباب في برنامج الجغرافيا البشرية مثل هذه المشاكل ، اما اطباؤنا وصيادلتنا فمن واجبهم ان يعرفونا بقيمة مختلف الوسائل المستعملة لتحديد النسل والتي يزداد عددها يوما بعد يوم ٠ فقد احدثت مصحات في بعض بلدان الغرب لمجرد اعداد المرأة لتصبح قادرة على تحديد نسلها ولتتعلم اسباب الوقاية من الاضطرابات الناتجة عن سوء الاستعمال ومن ملاءمة بين الوسيلة المستعملة وحالة المرأة البدنية ، ان المراقبة الطبية في هذه المصحات واجبة وكثيرا ما يستعملون في غير وجل اسلوب (اوجينو) وقد انعقد يوما بالهند اجتماع ضم نساء اميات وحاولت المسؤولة ان تشرح لهن هذا الاسلوب فسلمت لكل واحدة منهن آلة تحتوي على كويرات وكان يكفي ان توجه المرأة كرة منها كل يوم من اليمين الى اليسار لتعرف بالضبط ماهي المدة التي تكون فيها عقيما فارتاحت الحاضرات لهذه الطريقة البسيطة الا ان البعض منهن وضعن دفعة واحدة جميع الكويرات على اليسار ليصبحن جميعا عقيمات حالا وقد أثبت الفحص الطبي انهن حملن ذلك الشهر ٠ واذن فان الوسائل المستعملة لاتنجح بسهولة وبسرعة ولابد من ممارسة طويلة وصبر كبير وتربية وتثقيف لبلوغ الغاية ٠

وبالعكس من ذلك نجد في الولايات المتحدة بعض المصحات المختصة في معالجة العقم وفي كلتا الحالتين فان الغرض هو تحرير الفرد ، هو ان تكون الامومة مقرونة بالسعادة وان يكون الطفل مرغوبا فيه عوض ان يكون عالة ٠

لم نصل فى تونس بعد الى المرحلة التى يجب ان ندرس فيها برنامجا عمليا لتحديد النسل • المهم اليوم هو خلق تيار فى الرأى العام يساعد على ذلك ولا أشك فى ان النساء وخاصة الصغيرات السن منهن يرحبن بذلك وقد لايوافق ازواجهن وقد يحرصون على ان تبقى نساؤهن فى حالة عبودية ولسان حالهم يقول : اذا كانت المرأة لاتلد فماذا عساها تفعل وقد سمعت اما أنجبت سبعة اولاد تقول انه ليعز على الانسان ان يرى ابناءه يغادرون المنزل العائلى الواحد بعد الاخر وعندما قيل لها : يجب ان تجد هذه المرأة شغلا آخر لايعتمد فقط على تربية الاولاد اجـابت المسكينة : لا ابدا بـل يجدر بها ان تباعد مـا بين الولادات ثم تلـد دائما الى بلـوغ سن الخمسين • وربما خشيت هذه المـرأة الشيخوخة او بالاحرى ان يعتبرها الناس دخلت الشيخوخة اذ من عـلامات الشيخوخة عند النساء التوقف عن الولادة •

ان المراة التونسية تعتبر منذ زمن بعيد انها خلقت لتتزوج ثم لتلد وتعتبر ايضا ان المسؤوليات الحقيقية فى الحياة ليست من نصيبها هى فـلابد من وقت طويل لتقتنع بانه يمكنها ان تتحمل مسؤولية حياتها عوض ان تخضع لها •• ان البشر منذ غابر العصور حاولوا دائما ان يحددوا من نسلهم ولم تكن المسالة تهم الدولة فى الماضى وكانت النساء تتهامسن حول السر فى تحديد النسل معرضات انفسهن الى الهلاك • وقد امكن للانسان بفضل تقدم العلوم فى جميع الميادين ان يتعلم كيف يقهر الموت • الا انه من الضرورى ان تتمكن البشريـة من التغذية ومن حل المشاكل الناتجة عن تزايد السكان • لذلك رأينا بعض الحكومات تخصص فى التصميمات الكفيلة بتوفير اسباب الازدهار الاقتصادى والاجتماعى برنامجا لتحديد النسل بينما تترك بعض الحكومات الاخرى الحرية التامة للمنظمات الاجتماعية • ان الحكومة الفرنسية عندما سجلت انخفاضافى نسبة الولادات حرمت الـوسائل المستعملة لتحديد النسل ومنعت الاجهاض بقانون 1920 ويوجد فصل فى القانون الجنائى يقر نفس الامر بنفس الصيغة منذ ذلك التاريخ بينما الفرق واضح بين البلادين من جميع النواحى واذا طالب بعض الفرنسيين اليوم بالغاء ذلك القانون فباسم تحرير الفرد كما يقولون اما بالنسبة لنا نحن التونسيين فان ذلك يكون من اجل تحديد نمو عدد السكان والاعتبارات الاقتصادية •

واذا ما وجد تيار مناسب فى الراى العام ووقعت دراسة مضبوطة للظاهرة الديموغرافية فى تونس ودراسة طبية للوسائل المناسبة فانه لاشىء يمنـع البلاد التونسية من المضى ـ من غير تشاؤم ـ نحو عهد الرفاهية والازدهار لجميع المواطنين

وان المـرأة التونسية تعلمت بفضل سياسة الـرئيس بورقيبة الرشيدة البصيرة كيف تلعب دورها الاجتماعى بجد فالواجب يدعو الى ان نعينها على القيام بدورها •

**فتحية مزالى**
مـديرة دار المعلمـات

# كبرى الثورات : انبعاث الوعي الاقتصادي

بقلم عزالدين كلوز



عرف آباؤنا بل عرفنا ـ وما بالعهد منقدم ـ زمنا كان فيه ذكر التخلف الاقتصادى من بين مظاهر تخلفنا وجها من وجوه الطرافة او التطرف وكان فيه النداء بمجاهدة التخلف الاقتصادى ظاهرة من ظواهر الجسارة او التجاسر ٠

اما الآن فقد صارت الصحف والمجلات لاتخلو يوما من مقالات اخبارية او ارشادية تتعلق باقتصادنا ومميزاته وعوائقه فهذه ابحاث حول مشكلة البطالة وما يقتضيه علاجها وهذه دراسات حول التصنيع المحتم وما يحول دون انجازه العاجل وهذه محاضرات تتلوها مناقشات حول التصميم والتصميم ثم التصميم ٠٠٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فكاد يصير السكوت عن الاقتصاد والتصميم هو ظاهرة الشذوذ والجسارة وهذا لعمرى تحول فى عقلية مواطنينا وسيرتهم ليس من باب التطور فحسب بل من باب الانقلاب والثورة لذلك رأينا ان لايخلو عدد خصته **«الفكر»** لل **«ثورة الكبرى»** من بحث حول مانعتبره كبرى الثورات التى عاشها الشعب التونسى ومازال بحمد الله يحياها وهى انبعاث الوعى الاقتصادى ٠

واقصى ما يصبو اليه مقالنا هذا هو تفهم ما حصل من الانقلاب فى العقلية الاقتصادية التونسية وما هو حاصل من الانقلاب فى السيرة الاقتصادية التونسية اذ رأينا مواطنينا فى اثناء مدة غير طويلة يجتازون مرحلة الشعور بالتخلف بالغين درجة الفهم للتخلف الاقتصادى ورأيناهم يعبرون مرحلة الرغبة فى التقدم بالغين مرتبة الارادة للتقدم الاقتصادى وذلك ما تجسم فى اعتناء تونس ـ حكومة وشعبا ـ بوجوه البحث الاقتصادى وبما امتازت تونس بتسميته تسمية تشير الى الجمع بين التدبير المحكم والعزم الراسخ : التصميم الاقتصادى ٠

## 1 ـ من الشعور بالتخلف الى تحليل التخلف : اولى خطوات التخطيط الاقتصادى :

كلنا ـ او اكثرنا ـ اثناء سنوات المقاومة السياسية ومعركة التحرير نتصور ان سيطرة الاستعمار على دواليب ادارتنا هى العائق الوحيد دون ازدهار اقتصادنا والبلوغ به الى ما يتماشى مع حاجياتنا ومطامحنا وأقل ما كنا نأمله من فوزنا بالاستقلال ان يفتح من غير ما تأجيل ـ عهد الانجاز السريع فى سبيل الازدهار وكان منا الكثير يتصور ان القضاء على كل مظاهر التخلف سوف يكون من انجاز يوم الاستقلال او على اقصى تقدير من انجاز سنة الاستقلال ٠

### 1 ـ الاستقلال السياسى ونشأة الشعور بحالة التخلف الاقتصادى :

وفزنا بالاستقلال ونلنا اعجاب العالم بانتصاراتنا السياسية وبما اظهرناه من الرشد والرصانة فى شتى الميادين ٠ غير انا لما تبوأنا مناصب المسؤولية تبينا صعوبة ما نصبو اليه ٠ ذلك ان الاستقلال أراحنا من مركب النقص الذى كان يوجب علينا ان نخفى عن عيون الاعادى وعن عيون الشهود وحتى عن عيوننا مواطن ضعفنا ٠

عند ذاك شعرنا بأن ما يقاسيه اقتصادنا ليس ضعفا فحسب كضعف اقتصاد المانيا المنهزمة سنة 1945 ـ او السنة صفر كما سماها بعض ادبائها ـ بل حالة امتازت عن حالة الضعف بكثرة العوائق دون تلافى ذلك الضعف اى حالة نسمح لانفسنا بتسميتها حالة دون الصفر حالة تخلف ٠

شعر قادتنا بذلك وعبروا عنه فى صراحة نالت لهم ـ ولنا ـ اعجاب الملاحظين اذ كثيرا ما اعترفوا انهم لم يروا من بين قادة الشعوب الحديثة العهد بالاستقلال من بلغ ما بلغه قادة هذه البلاد من الاصابة فى تحليل مواطن ضعف بلادهم ومن الجسارة فى علاج مشاكلها من اساسها ٠

### 2 ـ المحاسبة الاقتصادية وتحليل التخلف الاقتصادى :

وفيما قامت به حكومة الجمهورية من البحث الاقتصادى وتحضير وسائل التخطيط الاقتصادى (1) اقوى دليل على خروجنا من حالة الشعور والعاطفة الى حالة التحليل العلمى والتفهم اذ علمتنا ابحاثنا هذه فى المحاسبة الوطنية حقائق مهولة عن ضعفنا الاقتصادى الحالى وعن تخلفنا٠

---

(1) من اهمها دراسات وكالة كتابة الدولة للتصميم (ثم ادارة التصميم) فى المحاسبة الوطنية او الاقتصادية وهى ابحاث استغرقت 18 شهرا واسفرت عن نتائج قد تشوبها بعض النقائص الا انها مرجع اساسى لكل من اراد تحليل الحالة الاقتصادية قبل الشروع فى الانجاز الاقتصادى ؛

اما الضعف الحالي فيتجلى من بعض الارقام يفضي بها البحث المجرد • فمدخولنا الوطني لايفوق 220 مليونا من الدنانير فلا يكاد يساوي ميزانية بعض الشركات الراسمالية والمدخول الفردي في بلادنا 50 دينارا لايفوق خمس المدخول الفردي بالولايات المتحدة الامريكية وعدد بطالينا عدد ذو بال (2) ونسبته لجملة اليد العاملة ارفع من نسبة البطالين بامريكا اثناء « الاشهر السود » من الازمة العالمية الكبرى ازمة 1929 (3)

واما الضعف عن تلافي الضعف وهو ما اعتاد الاقتصاديون تسميته بالتخلف فذاك ما يتجلى في ضئالة الامكانيات التمويلية • ومعلوم ان تنمية الدخل الوطني والفردي وتعميم التشغيل تتم بانشاء المشاريع وانشاء المشاريع يتم بالتمويل والتمويل نتيجة الادخار •

ومدخولنا الوطني الضعيف لو ادخرنا منه نسبة تساوي نسبة الادخار بالبلاد الغربية مثلا (17 0/0) لما مثل ادخارنا كله اكثر من 35 مليونا وهو مقدار قد يستغرقه انشاء خمسة او ستة من المعامل ذات البال غير ان مداخيلنا الفردية الضعيفة لاتسمح ببلوغ ذاك المستوى من الادخار كما ان تكويننا الاقتصادي الناقص لايشجع على الادخار واقل منه على استعمال المدخر في تمويل المشاريع الانتاجية لذلك اسفرت أبحاث المحاسبة الاقتصادية ان الادخار لم يفق 20 مليونا سنة 1957 اي نسبة 9 0/0 واذا ماذكرنا ان نصيبا من ذلك التمويل لم يكن الاتجديدا للتجهيز الموجود واصلاحا له وان ذلك النصيب يقدر بـ 13 مليونا من الدنانير فهمنا ان 7 ملايين من الدنانير فحسب امكن تخصيصها اثناء تلك السنة لتمويل المشاريع الانتاجية الجديدة•

ومما يزيد الطين بلة أن نسبة انتاجية التمويل ليست (ولايمكن ان تكون) نسبتها في البلاد المتقدمة وذلك راجع الى ان اسباب الاستثمار متوفرة بالبلاد المتقدمة كانها تترقب التمويل حينما البلاد المتخلفة محرومة من تلك الاسباب فلا يثمر فيها تمويل انتاجي لم يسبقه ــ أو يسانده ــ تمويل أساسي غير انتاجي يضاهيه أهمية ــ او يفوقه (4) مما يجعل نسبة النمو الناتج عن

(2) 000 140 قبل الشروع في برنامج التشغيل التام الذي تقرر انجازه اثر توجيهات رئيس الجمهورية الخاصة بمجاهدة التخلف •

(3) جملة اليد العاملة التونسية 000 200 1 فنسبة البطالين 12%

(4) اهمية التمويل « الاساسي » غير الانتاجي لاتخفى عمن يذكر أن بناء المعمل وحده لاينفع مالم يسبقه اعداد الطرقات والسكك الحديدية الموصلة اليه وما لم يسبقه اعداد وسائل انتاج المواد الخام او استيرادها وما لم يسبقه تدريب الاطارات المقتدرة على تسييره •

التمويل 1/6 او 1/8 فى بلاد كبلادنا حينما تبلغ 1/4 او 1/3،5 فى بعض الميادين الاقتصادية فى البلاد المتقدمة ٠

فان كانت مقارنة حالة الاقتصاد التونسى بالاقتصاد الامريكى من حيث الضعف والقوة تفضى بأن المواطن الامريكى يتمتع بأضعاف ما يتمتع به التونسى خمس مرات فان المقارنة بين الاقتصادين من حيث التخلف والتقدم تتبين فى أن امكانيات الفرد الامريكى التمويلية (وهى مقياس امكانيات تقدمه) تزيدعلى امكانيات الفرد التونسى بمقتضى التفاوت بين دخل كل منهما (5 مرات) وتزيد عليها بمقتضى تفاوت نسبة الادخار عند كل منهما (بمرتين) وتزيد عليها بمقتضى تفاوت انتاجية التمويل (بمرتين) فامكانيات التمويل من اجل تقدم الفرد الامريكى هى أضعاف امكانيات التمويل فى سبيل تقدم الفرد التونسى بـ 20 مرة أو قل ان شئت ان الفرد الامريكى (علاوة على ما فات به الفرد التونسى فى سبيل التقدم) يمكن له قطع 20 خطوة كلما خطا الفرد التونسى خطوة واحدة !

تلك ارقام مهولة ما عمدنا الى ذكرها الا لنبين مظهرا من مظاهر مشكلتنا الاقتصادية هو أن من طبيعة التخلف ان يتفاقم لا أن يتناقص بمرور السنين مما يدل (ان احتاج ذاك الى دليل) على أن الخروج من التخلف ليس من قبيل التطور الطبيعى بل من قبيل الانقلاب والثورة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لذلك كانت المهمة الموكولة للمخطط الاقتصادى غير مهمة زملائه بالبلاد المتقدمة فهى الى ما تقتضيه من محكم البحث والحساب تشترط العزم الراسخ على الانجاز الحثيث وذاك معنى التصميم ٠

**2 ـ من الرغبة فى التقدم الى ارادة التقدم : انبعاث التصميم الاقتصادى**

ولعل اول ما تمتاز به مهمة المصمم التونسى هو أن تحليله للحالة الاقتصادية الحاضرة يملى عليه خطته ويحتم عليه اختيار مرمى ما سواه وما دونه من مرمى هو القفز بالبلاد من حالة تخلفها الى حالة استعداد للتقدم الاقتصادى ٠

**1 ـ ضرورة الخروج من التخلف :**

فالخروج من التخلف يبدو بعد التمعن فى تلك الابحاث والتحاليل كالمرمى الوحيد لا يمكن اختيار غيره الا أنه فى الوقت نفسه المرمى الادنى لايمكن اختيار مرمى دونه ٠

فالسير فى طريق التقدم لايمكن ان يكون مشيا بخطى متئدة قصيرة بل لامناص من ان يكون قفزا من حالة لأخرى مع ما يقتضيه القفز من عنيف المجهود ·

ذلك أن المجهودات الضئيلة المشتتة ولو تعددت فهى فى معركة التقدم الاقتصادى لاتكفى ولا تجدى ·

اما انها لاتكفى فبدهى ، اذ معروف ان حاجياتنا اكثر من حاجيات غيرنا من البلاد المتقدمة ومعروف كذلك أن نشأة الشعور بالتخلف شحذت ومازالت ـ بحمد الله ـ تشحذ تعطش مواطنينا الى الخروج من التخلف غير صابرين على تحقيق تقدمهم خطوة بعد أخرى فلا يعقل مثلا أن يصبر التونسى الحر المستقل على تعميم التعليم وقد علمناه ان التعليم اول حقوق ابنائه (5) ولا يمكن ان يصبر المواطنون على انجاز برنامج التشغيل التام وقد علمناهم (ونحن بذلك فخورون وعليه غير نادمين) ان العمل واجب مفروض وحق لاجدال فيه (6)

واما أن المجهودات المشتتة لاتجدى فأمر قد يعسر فهمه اذ قد يبدو من المعقول أن يأتى كل مجهود ثمره مهما يكن ضئيلا ، الا أن اعتبار الواقع الاقتصادى يعلمنا ان نسبة الدخل للتمويل تزداد بازدياد اهمية التمويل

(5) من ضرورة تفاقم عدد السكان ان يبلغ عدد الاطفال المتراوح عمرهم بين 6 و 12 سنة 000 800 فى عام 1970 وتعليم هذا العدد من الاطفال لو عمدنا فى انجازه الى الطرق الاعتيادية « الطبيعية » يقتضى وجود 000 20 معلما عام 1970 اى انتداب عدد من المعلمين (عددهم الحالى 6000) يفوق الـ 1400 معلما فى 10 سنين أو 1400 فى السنة والحال ان عدد المحرزين على الباكالوريا سنة 1959 يساوى 400

(6) من ضرورة تفاقم عدد السكان ايضا ان يزداد عدد الرجال القادرين على العمل بين سنة 1960 هذه وسنة 1970 بـ 000 400 نسمة · ويضاف الى هذا العدد عدد البطالين الحاليين وهو 000 140 لنتصور عدد ما ينبغى تشغيله من الناس فى ظرف 10 سنين وهو اذن 000 540 اى اننا لو عمدنا الى الطرق العادية فى انجاز مثل ذلك البرنامج لتحتم علينا يوميا انشاء معمل يشغل 130 شخصا ومعمل كهذا معمل ذو بال !

وتنقص بنقصانها (7) لاسيما فى البلاد المتخلفة حيث يخشى على المشاريع ان تكون منعزلة عن اسباب الاستثمار الكامل (8)

لذلك رأينا أن لهذه المرحلة الاولى من مهمة المصمم التونسى وهى فهم حدود ما هو مقدم عليه من عمل ومقتضياته معنى ذا خطر بالنسبة لكل من اجتازوها فلقد حيرهم ما فرضت عليهم الارقام اعتباره من الحقائق المهوله وكاد يعجزهم ما تبينوه من صعوبة المهام التى يفرض عليهم العقل والضمير القيام بها كاملة وبدون ما تاجيل (9)

**2 ــ ارادة التقدم او خطواتنا الاولى فى طريق التصميم الاقتصادى :**

الا ان تونس جمعاء ــ قادة وشعبا ــ تحيا من حياتها الاقتصادية طور الخروج من مرحلة الرغبة الى مرتبة العزم والارادة وذلك اثر توجيهات رئيس الجمهورية التى فرضت مجاهدة التخلف وما انجر عنها من تكوين لجنة عليا للتصميم الاقتصادى وشروع فى انجاز برنامج تشغيل عام على أسس ثورية وسعى حثيث لانشاء مشاريع صناعية ذات بال كمصنع فولاذ ومصنع عجين الكاغذ ومصنع فرفرول ومصنع اسمدة فسفاطية ومصنع سكر وغيرها

فى هذه الفترة وبفضل ذاك التوجيه تمكنا من التعمق فى فهم امرين كان اكثرنا يجهل مكانتهما اولهما مقدار صعوبة التصميم الاقتصادى فى بلاد كبلادنا وثانيهما مكانة مزايا التصميم فى ميدان الانجاز والانشاء

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(7) فان كان دخل مشروع استغرق تمويله 000 000 1 من الدنانير 200000 دينارا فهذا لايدل على انمشروعا استغرق تمويله 10000 دينارا سيكون دخلة 2000 دينارا بل من الممكن أن يكون دخل مثل هذا المشروع 1000 دينار فحسب ان لم تكن 500 ٠٠٠ او 0

(8) انشاء معمل سكر بشمال فرنسا يستغرق اعتمادات معينة يقتضيها اشتراء الآلات وبناء المعمل اما انشاء معمل سكر بشمال تونس فيقتضى علاوة على ذاك التمويل تمويلا فى الحقل الفلاحى لابد منه لتهيئة الفلاحة والفلاحين لتموين المعمل باللفت السكرى

(9) انظر « الفكر » عدد مارس او فيفرى 1958 « **ما بين النظرية والتطبيق:** خواطر حول مناهج السياسة الاقتصادية » بقلم عزالدين قلوز ٠ وكان عمر التصميم وقتذاك ستة اشهر اذ ولد بولادة اول حكومة جمهورية فى شهر اوت 1957

### 1 ـ مصاعب التصميم التـونسى :

اما صعوبة التصميم فذاك ما تبين لكل من انيطت بعهدته مسؤولية انجاز مشروع او بعض مشروع فى اطـار المعركة الاقتصادية • فقد حظى هـؤلاء المسؤولون بالعمل فى كنف جو جديد سقطت فيـه العراقيـل السياسيـة والادارية وحتى المـالية ومدت فيه لكل المنجزين جميع انـواع المساعدات الا أنهم لمسوا وقتذاك ان التصميم غير التخطيط كما ان الارادة غير الرغبة اذ فهموا ان عوامل غير العوامل الادارية والمالية قد تعطل الانجاز ولا يجـد المصمم لتذليلها من سبيل اذ ترجع الى ما لاقدرة للمصمم عليـه كالزمـان والمكان والانسان

اما **الزمان** ففهم اهميته من جرب أن انجاز ما يقرره المصمم ( ولو منح كل ما يشترطه مشروعه من الاعتمادات المالية والنفوذ الادارى والاجتماعى) لايمكن ان يتم فى اقل من اجل يدوم اشهر بـل سنيـن يستغرقهـا درس المشروع واقتناء الالات وبناء العمارات (I٥) والحال ان الراى العام كما قلنا حريص على سريع الانجاز وهو (لما رأينا من الاسباب) جاهـل بمقتضيـات الانجاز ، والحال أن المسؤول نفسه مدرك أن مشروعه جزء او بعض جـزء من برنامج يعلم اتساع أرجائـه (II)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(I٥) بالنسبة لمشروع السكر (ويعتبر هذا المشروع من بـين المشاريـع السريعة الانجاز )

| | |
|---|---|
| استغرق الدرس الاقتصادى | 3 اشهر |
| والدرس الفنى الصناعى | 4 اشهر |
| والدرس المـالى | 2 شهرين |
| وسوف يستغرق صنع الآلات | I2 شهرا |
| وتركيبها | I4 شهرا |
| وبناء العمارة | 8 اشهر |

الا ان الانجاز وقـع بصفة متوازية فى بعض الميادين فأمكن تلخيص هذا البرنامج فى 30 شهرا الا ان ذلك اجل ادنى مادونه من اجل

(II) قد يستخدم مشروع ذوبال يستغرق انجازه 30 او 40 شهرا I000 او I500 عاملا وهى نتيجة تعتبر حسنة • الا ان برنامج التشغيل الذى اشرنا اليه يقتضى تشغيل 50000 عامل فى كل سنة اى ان منجز مشروع كهذا يشعر بان انجازه جـزء من I00 جزء فى البرنامج الذى يفرضه عليه الضمير والعقل

اما **المكان** او الموقع الجغرافى فمن ابرز مظاهره ان المصمم الاقتصادى يعمل فى حيز حدود جغرافية ضيقة وهذا التضييق من العراقيل ذات البال التى لايتفطن اليها كثيرون كمن يقارنون حالة تونس بحالة الصين الشعبية مثلا ويستغربون من أن لاتكون طرق النشاط التقدمى بتونس مثيلة الطرق المقتفاة بالصين فيذكرون فيما يذكرون انجاز الصين الشعبية للطرقات والسدود وحتى المعامل باستخدام اليد العاملة فى نسبة لاتخطر على بال الاقتصادى « الغربى » الا ان استنتاجا كهذا يبدو غير معقول ان ذكرنا ما لاتساع الارجاء الجغرافية من تأثير فى مقدار الادخار والتمويل اولا (12) وفى امكانية استعمال اليد العاملة نفسها ثانيا (13) وفى الانتاجية الاقتصادية للمشاريع ثالثا (14) واخيرا ٠

واخيرا ٠

اما **الانسان** فيعترف بانه « أعز رؤوس الاموال » من مارس صعوبة وجود الاطارات المقتدرة على تشييد المشاريع المنتجة وعلى تسييرها تسييرا مثمرا وواجه الواقع المر المخجل وهو ان انجاز المشاريع فى كثير من الاحيان تحول دونه قلة الاطارات اكثر من قلة الاموال (15) اى هذه المشكلة فادحة التأثير فى سير برنامج التصنيع وجرب ان أثرها فى غير البرامج الصناعية وانكان اقل فله اهميته ولا بد من التفكير فيه كما راينا الحكومة والمنظمات القومية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(12) لو ادخر كل فرد صينى دينارا واحدا وادخر كل فرد تونسى 4 دنانير لإمكن للصين تشييد 150 معملا وأمكن للتونسيين بناء 4 معامل فحسب !

(13) لاننكر أنه يمكن انجاز مشروع ما باستخدام 2000 عامل معاستعمال آلة واحدة الا أن هذا لايدل على أنه يمكن استخدام 200 عامل مع استعمال 1/10 آلة !

(14) ان كل معمل يبنى بالصين يمكن له ان يعتمد سوقا وطنية كافية تغنيه عن التصدير ذلك لان 600 مليونا من السكان يضمنون استهلاكا لانسبة له باستهلاك 4 ملايين من السكان ٠

(15) لايمكن ان تكون نسبة الاطارات (المتحصلة على التعليم الثانوى وما فوقها ) اقل من 1/5 فى الصناعة فلو طمعنا بانشاء عشرة معامل فى كل سنة تستخدم فى جملتها 2000 عاملا لوجب تكوين 400 من المهندسين ومساعدى المهندسين فى كل سنة ومعلوم أن عدد المحرزين على الباكالوريا وما يضاهيها سنة 1959 لم يفق 400

تفكر فيه لانجاز برنامج تشغيل بطالينا الـ 140000 رغم ما تقرر من تشغيلهم في مشاريع لاتقتضى استعمال عدد وافر من الفنيين (16)

**2 ـ مزايا التصميم : مرآة وسلاح وضمان :**

العراقيل التى يواجهها المصمم كثيرة الا ان مواجهتها تهون على من اقتنع بفضل الطرق التصميمية ، فى ميدان الانشاء الاقتصادى وفهم متسع الامكانيات التى يفتحها التصميم فى طريق التقدم وهى راجعة الى أن من عرف حاضره تعرف الى مستقبله وأن معرفتنا لحاضرنا ومستقبلنا ضمان نعتمده ويعتمده غيرنا فيسهل معه التعامل الذى هو اساس الحياة الاقتصادية العصرية .

فاول ما يفوز به المصمم معرفة امكانياته وبها تجتنب المطامع غير المعقولة فتجتنب الخيبات ذات الاثر السىء على سير بلاد فى طريقها الى التقدم فلا يشرع فى انجاز مشروع يفوق امكانيات البلاد ولا فى مشروع لم تهيا له جميع اسباب النجاح بعيدها الى حقل المشروع وبعيدها عنه .

بفضل هذا التعقل يكتسب الشعب ثقته بمستقبله ويكتسب ثقة الاجانب به وبمصيره وهذا الامر لابد من قراءة حساب له واى حساب ولقد علمتنا تجاربنا وتجارب غيرنا أن سببا من الاسباب الاساسية لسوء التفاهم بين مسؤولى ادارات البلاد المتخلفة وخبراء « التعاون الفنى » راجع الى سوء تأثير مجازفات الاولين على الاخيرين (17)

وليس اكتساب ثقة المواطنين من جهة وثقة الاجانب من جهة اخرى عاملا أدبيا فحسب بل هو عامل اقتصادى فعال له المكانة الاولى بين عوامل الانجاز الاقتصادى فى حضارتنا الاقتصادية العصرية اذ ترتكز كلها على القرض والاقتراض ولا يعقل هذا التعامل الا فى جو من الثقة . والمثل الفرنسى الذى يقول « لايقرض الا الاغنياء » قد يبدو غريبا قاسيا بادىء بدء الا انه يعبر عن واقع وعن حقيقة . فواقع ان الافتراض يستعصى على من ليس لديه ضمان يقدمه ومن الحق ان لايقرض القارضون من لا يأملون منه

(16) يستدعى استخدام 100 عامل فى الغابات او فى اشغال مقاومة الانجراف وجود قيم ويستدعى التنسيق بين 10 من هؤلاء القيمين مسؤولا ويستدعى تنظيم عمل كل 10 من المنسقين منظما وهى ارقام تفهمنا ضرورة برنامج تكوين المنشطين الذى تعتنى الحكومة به

(17) موضع التعاون الفنى متسع الارجاء معقد ... لاحظنا ان كثيرا من موظفى البلاد الحديثة العهد بالاستقلال يعمدون الى الاخذ من نزاهة الخبراء الاجانب والشك فى كفاءتهم وهو انتقاد له مكانته من الاصابة الا ان اخفاق عدد كثير من الخبراء فى مهمتهم يرجع الى كونهم لم يجدوا فى جهات عملهم « مقابلا محليا » قادرا على فهمهم فلا يطالبهم بما ليس لديهم ولا يؤاخذهم بما ليس فيهم .

ارجاع ما قدموا الا ان الضمان قد يكون حاضرا وقد يكون آجلا والتصميم من شأنه ان يسهل على المقترض الاستظهار بالضمانات الحاضرة والاحتجاج للضمانات الآجلة .

فالمصمم الذى درس تفاصيل مشروعه أدرى بما يمتلكه من الضمانات وأقدر على استثمارها فى التحصيل على ثقة قارضيه باقناعهم أن ما يقترضه يتماشى مع ما لديه من الامكانيات (18)

وكذلك الثقة بالضمانات الآجلة فلا يكتسبها الا من عرف ما خلفه وما بين يديه فاستطاع عرض مستقبل مشروعه جملة وتفصيلا وذاك عمل يستدعى بحثا طويلا لاسيما اذا ذكرنا أن مشاريع بلاد فى حالة بلادنا مشكوك فى اثمارها (19) وهى طريقة بدأت تظهر نتائجها الميمونة فى علاقتنا مع الغرب والشرق فى مختلف ميادين التعاون الاقتصادى والمالى (20) ولا نخال المستقبل الا موطدا لآمالنا فى هذا الحقل كما فى غيره

حاولنا بحث الثورة التى حولت الشعور وعيا وحولت الرغبة والتمنى عزيمة وارادة وعسانا اقنعنا ان الارادة الواعية وحدها ضمان خروجنا من التخلف وان المثابرة على العزم المصمم فى هذا السبيل واجب يفرضه علينا طموحنا للتقدم ... واشفاقنا من تفاقم التخلف

(18) تطبيق ذلك حقيقة نمارسها كل يوم : لايعقل ان يقع **تمويل مشروع** تونسى بالقروض الخارجية وحدها بل من المعقول أن لاتطلب القروض الخارجية فى نسبة تفوق 70% من اهمية المشروع مثلا الا أنه **يمكن للمقترض** اذا **بحث جميع** نواحى مشروعه أن يستظهر بعوامل تمويل غير العوامل المالية كالارض ومجهود اليد العاملة الاهلية وقيمة الدراسات التى قام بها الاختصاصيون الاهليون مما قد يخول رفع مستوى القرض الاجنبى الى نسبة تبلغ 90% من الاعتمادات المالية التى **يقتضيها المشروع**

(19) ان البحث المالى لمشروع السكر الذى اشرنا اليه اقتضى استعراض جملة وتفصيل مصاريف المشروع ومداخيله من 1960 الى 1971 فى 7 افتراضات مختلفة فوقع اذا تحليل مالية المشروع لـ 77 سنة ذلك لكى تتبين انتاجية المشروع فى العاجل وللاجل وفى كل الافتراضات

(20) كثيرا ما تخيب بعثات البلدان الحديثة العهد بالاستقلال فى طلبها الاعانات الاقتصادية والمالية من البلدان المتقدمة (بما فيها البلدان الاشتركية) وكثيرا ما تعزى هذه الخيبات الى اسباب سياسية ونحن وان كنا بعيدين عن انكار تلك الاسباب السياسية فلا يسعنا الا أن نقرأ لحجة « المتقدمين » حسابها وحجتهم انهم لم يجدوا فى مقترحات زائريهم «مشاريع مدروسة درسا كافيا »

**عزالدين قلوز**
رئيس مصلحة التخطيط الاقتصادى
بادارة التصميم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

# تونس تثور على التخلف

بقلم المنصف قن



ان غرة جوان كان يوم انتصار الشعب التونسى لاعلى قوى الظلم والطغيان الاجنبيــة فحسب بــل كذلك على العهد القديم فى جميع مظاهره اقتصادية كانت او اجتماعية او سياسية

ولا شك ان استقلال تونس السياسى يعتبر فعلا نقطة انطلاق وانفتاحا للاقتصاد الوطنى ، نقطة انطلاق لان اقتصادنا كان مبنيا على اسس عقيمة وغير وطنية فكانت الفلاحة مختلة الاتزان اذ جانب عظيم منها سائر على اساليب عتيقة لايمكن استعمالها من مضاعفة الانتاج اذ ان كل من خابت مساعيه فى الحياة يركن الى الزراعة ويرقب الغيث عله يجنى محصولا يقتات منه مدة من الـزمن وجانب آخر مسكته ايدى المعمرين فادخلت عليه الطـرق العصرية الفعالة وربحت منه اموالا طـائلة لم تعد عـلى الشعب التونسى الا بالضئيل النادر وكانت الصناعة الناشئة متعثرة اذ ان غالب التونسيين لم يشجعوا على ممارستها ولم يهتموا بها ولم يريدوا المخاطرة فيهـا وانصرف البعض منهم الى التجارة التى تـدر الربح العاجل والتى لاتكمن بهـا عـادة الاخطار الجسام التى قد تظهر فى الميدان الصناعى ، ولم تترعرع بتونس الا صناعات المناجم التى تستغل ثروات ما تحت الارض تلك الثروات الصالحـة لسير الصناعات التحويلية باوروبا وخصوصا بفرنسا وتستغل هذه الثروات شركات اجنبية يسير نشاطها على هامش اقتصاد البلاد

لو اردنا ان ننعت بجملة قصيرة الاقتصاد التونسى ايام الحماية لقلنا انه اقتصاد **مختل التوازن** بين الاشغال الصناعية والاشغال الفلاحية التقليدية وانه **اقتصاد بدائى** أى ان الانتاج القومى يعتمد اولا وبالذات على مـا يسمى بالاشغال البدائية اى الزراعة من جهة والصناعات التقليدية والمنجمية مـن جهة اخرى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم ان الاستقلال السياسي نقطة انفتاح لان الاقتصاد التونسي كان مخنوقا مضروبا عليه حصار شديد جعله في معزل عن تيارات التقدم فكان التراب التونسي منطقة قمرقية ونقدية واقتصادية موحدة مع التراب الفرنسي فلما تحصلت تونس على سيادتها السياسية كان من المتحتم تكسير هذه الحواجز واحدا بعد الاخر ونسف هذا السياج المصطنع فمدت الحكومة التونسية يد التعاون الى العالم الخارجي ووثقت علاقتها الاقتصادية مع كثير من البلدان سواء في ميدان التجارة او التعاون الفني والمالي

ويمكن ان نلخص مظاهر السياسة الاقتصادية التى تنتجها تونس منذ استقلالها في اتجاهات ثلاثة وهى أولا تحرير اقتصاد البلاد من رواسب الاستعمار وتطهير المؤسسات منها

ثانيا : النهوض بالانتاج الفلاحى

ثالثا : خلق جهاز صناعى يمكن بواسطته توفير الانتاج القومى واستكمال اسباب المناعة والاستقلال فى الميدان الاقتصادى

**تونسة المؤسسات الاقتصادية**

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ان غاية الحركة التحريرية التونسية لم تكن ترمى فقط الى استرجاع الكرامة والعزة الوطنية للشعب التونسى بل كذلك لانتشال اقتصاد البلاد من الايدى الاجنبية حتى يؤدى وظيفته الطبيعية وهى خدمة مصالح الشعب وتوفير اسباب السعادة وحياة الرفاهية

ففى ميدان البنوك انشىء البنك المركزى يوم 4 نوفمبر 1958 وخرجت العملة التونسية الى الوجود ورغم هروب عدد عديد من رؤوس الاموال غداة الاستقلال لان اصحابها كان يغلبهم مرض وهلع فوفرت الاعتمادات المالية بالبنك المركزى وبلغت فى شهر فيفرى المنصرم ما يزيد عن اربعة واربعين مليون دينار ،

وقد بعث جهاز بنكى عصرى قادر على نفث الاعتمادات المالية فى الهيكل الاقتصادى التونسى بصفة منظمة وفعالة فاحدثت الشركة التونسية للبنك فى 26 مارس 1958 والبنك القومى الزراعى اول جوان 1959 والشركة القومية للتمويل وهى منظمة تدرس مشاريع النهوض الاقتصادى وتشارك ماليا فى خلقها وتنفيذها

وفى ميدان النقل وقع تاميم شركة الخطوط الحديدية وشركة النقل بالعاصمة وشاركت الحكومة التونسية فى نصف رأس مال شركة تونس الجوية وبعثت الشركة القومية للملاحة فى مارس 1959 لاستغلال جانب من الخطوط البحرية التى تربط الجمهورية التونسية بفرنسا وغيرها من البلدان

وفى ميدان المناجم قررت الحكومة التونسية مشاركتها فى نصف راس مال شركة صفاقس قفصة اذ ان الفسفاط مادة ذات اهمية كبرى لايمكن تركها فى ايدى شركة اجنبية تعمل بها ماتشاء

واسترجعت الحكومة قسما من اراضى المعمرين خصوصا فى جهة الوسط وهى تسعى الان لاسترجاع القسم الباقى وادخاله فى صلب الثروة الوطنية

هذا ويجدر ان نلاحظ ان عملية تطهير الاقتصاد التونسى من مخلفات الاستعمار تمت فى غالب الاحيان بدون اصطدام عنيف وبطريقة التفاوض والمراحل وتغليب العقل على العاطفة ولعل هذه الطريقة كانت من انجع السبل لبلوغ اهدافنا الوطنية فى ميدان الاقتصاد بدون احداث قلاقل وربما نعود على سير المؤسسات بعواقب قد تكون وخيمة

**النهوض الفلاحى**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم تقف الحركة التحريرية عند هذا الحد بل تعدته لتبنى اقتصادا قويما يرمى الى توفير الانتاج وما من شك ان الاقتصاد التونسى يرتكز اولا وبالذات الى هذه الساعة على الفلاحة

وكان الانتاج الفلاحى قبل الاستقلال لايرمى بصفة ثانوية الى سد حاجيات الاهالى الغذائية بل كان موجها نحو التصدير · فالقمح الصلب والخمور توسق للخارج مقابل قسم من المواد الغذائية الاخرى التى نوردها من منطقة الفرنك وقد رات الحكومة انه من الضرورى استغلال الثروات الفلاحية لسد حاجيات البلاد قبل كل شىء وسق الباقى الى الاسواق العالمية وقد اعدت كتابة الدولة للفلاحة برنامجا فلاحيا يمتد على عشر سنوات عشر تصبح اثرها الفلاحة نامية عصرية تتناسب ورغبات الشعب التونسى وتتخذ السلطات عدة طرق للوصول الى هذا الهدف وتحقيق برنامج العشر سنوات هذا·

فالطريقة الاولى هى الاصلاح الزراعى وقد صدر قانون بتاريخ 10 جويلية 1957 يحل الاوقاف الخاصة وقانون آخر بتاريخ 29 سبتمبر 1957 ينظم توزيع الاراضى الاشتراكية بين مستحقيها ويرمى هذان القانونان الى تشجيع الاهالى

البدو والرحل على الاستيطان بالاراضى التى يجب استغلالها وتمكينهم من اقامة تعاضديات فيما بينهم كما احدثت دواوين لتنظيم اساليب الرى ومكافحة الانجراف وتنمية الانتاج الفلاحي ومنها ديوان وادى مجردة وديوان النفيضة وديوان سيدى بوزيد ٠

وانشىء ديوان للالات الزراعية العصرية وسيكون له دور فعال في النهوض بمستوى الانتاج اذ ان الفلاحة لن تقفز القفزة الضرورية الا اذا اتخذت الاساليب الكفيلة لذلك ومنها استعمال مثل هذه الالات ٠

ولايمكن ان ننسى الى جانب هذه الوسائل برنامج التشغيل الكامل ومكافحة البطالة الذى يرمى الى استثمار الطاقة البشرية العاطلة لتنمية الفلاحة وتحسين الطرقات

## تصنيع البلاد

ان النهوض بالفلاحة لايكفي وحده للسير بالبلاد نحو الازدهار واستكمال شروط الاستقلال فالبلدان الفلاحية فى حاجة دائمة الى التى تم تصنيعها والفرق عظيم بين قيمة المنتوج الفلاحي وقيمة المواد المصنوعة ٠ ورغم وجود عراقيل شديدة منها غلو الطاقة الكهربائية بتونس وضيق السوق قررت الحكومة فى نطاق ثورتها على التخلف ان تضمن للبلاد جهازا صناعيا يجعلها فى مصاف البلدان المتقدمة ويقيها شر التبعية المجحفة ٠ وترمى الحكومة الى تنمية الصناعات التالية :

http://Archivebeta.Sakhrit.com

اولا : الصناعات التحويلية

تحويل المواد الزراعية : يوجد بتونس 23 معملا لتصبير الغلال والخضر و 14 معملا لتصبير السمك وعدد آخر من معامل المواد الغذائية وستتكون معامل اخرى لصناعة عصير الغلال والسكر والصابون ٠

تحويل المواد الاولية : تكونت مدبغة بمنوبة وصناعة الاحذية تمت الآن نموا يدعو الى الارتياح كما اخذت صناعة الاثاث المنزلى تترعرع ونشأت صناعة النسيج بقصر هلال وستبرز قريبا صناعات اخرى فى الميدان الكمياوى ومعمل لتكرير البترول بالصخيرة ومعمل جديد للفوسفاط

ثانيا : المناجم : تنتج البلاد التونسية الى جانب الفوسفاط عدة معادن وهى الحديد والرصاص والزنك ويتواصل البحث على البترول وليس من الغريب ان توجد هذه المادة بالجنوب التونسى ٠

وتنوى الحكومة تحويـل جانب من هذه المعـادن بتونس فيزداد قيمتهـا وتتضاعف مداخيل الميزان التجارى ٠

ثالثا : الصناعات الاساسية او الثقيلة : قد يرى البعض ان لامستقبل لهذه الصناعات بتونس ولكن هذا الراى غير صائب عند امعان النظر ولذا تستعد السلطات لانشاء صناعة الفولاذ وتركيب الالات التجهيزية المختلفة فى انتظار صنع بعض اجزاء تلك الالات فى مرحلة اخرى

رابعا : صناعة السياحة : تعمل تونس على استغلال مظاهر الجمال الجذابة وحسن المناخ بها واستعداد شعبها المضياف لاستجلاب عدد وافر من السياح وجنى اموال هامة من هذه الصناعة ٠

كانت هذه بسطة مقتضبة عن الخطوط الرئيسية للثورة التى تشنها تونس حكومة وشعبا على التخلف الاقتصادى ولضمان عيش كريم لابنائها ٠

ونتبين من هذه النظرة الخاطفة ان تونس ما زالت فى بداية الطريق وان هذه الطريق لها من الوعورة والالتواء ما يستوجب الحذر والتكاتف والطموح وحب التقدم وارادة الحياة ٠

فليس من السهل ان تطوى قـرون التخلف طيـا سريعـا ولا ان ينمو الاقتصاد بدون اعمال الراى وتسطير البرامج القويمة وتنظيم حركة النمو هذه بصفة علمية وواقعية ٠

فنحن فى بداية الدرب ومن سار على هذا الدرب وصل ٠

**المنصف قـن**

متحصل على الديبلوم الاعلى للعلوم الاقتصادية
وديبلوم الدراسات السياسية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com